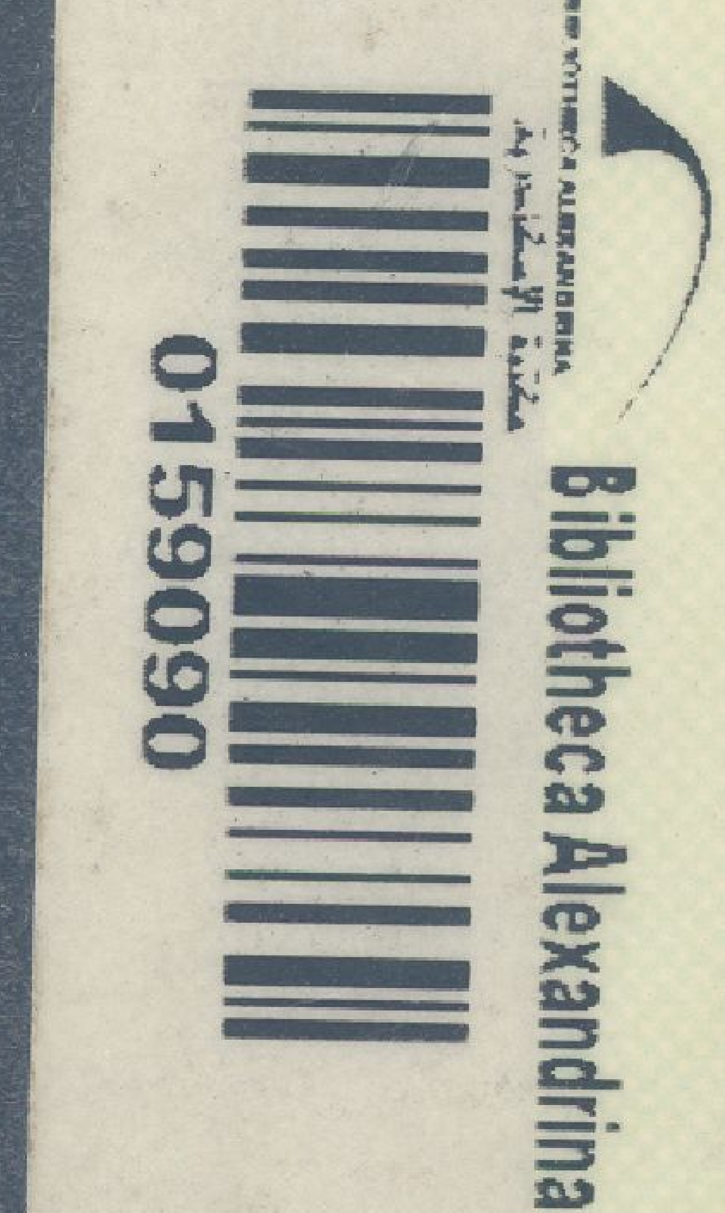
إيران في ظل الإسلام
في
العصور السنية والشيعية

الدكتور عبد النعيم حسنين





إيران في ظل الإسلام

في

العصور السنية والشيعية

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م
الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

إيران في ظل الإسلام
في
العُصُور السُّنيَّة وَالشِّيعيَّة

الدكتور عبد النعيم حسنين

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾

سورة الحجرات : آية ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إيران دولة مسلمة ، عرفت الإسلام منذ شروق شمسه على شبه الجزيرة العربية ، حين أرسل محمد بن عبد الله رسول الإسلام ــ ﷺ ــ رسالة إلى كسرى فارس يدعوه فيها إلى الدخول فى الإسلام ، دين الله الحق ، الذى رضيه لعباده أجمعين ، ولكن ملك فارس أبى واستكبر ، وكان من الخاسرين .

غير أن أشعة شمس الإسلام بدأت تتجه إلى إيران بعد وفاة الرسول ــ ﷺ ــ فقد بدأ الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى عام ١٣هـ فى أواخر عهد الخليفة الراشد أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ واستمر فى عهد خليفته عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه . وحقق المسلمون نصرا مبينا فى موقعة نهاوند ــ فى عام ٢١هـ ــ فسميت هذه الموقعة « فتح الفتوح » لأن دولة الساسانيين لم تقم لها قائمة بعدها ، فاستكمل المسلمون فتح سائر أرجاء إيران فى عهد الخليفة الراشد عثمان ابن عفان ــ رضى الله عنه ــ وقتل يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين ــ فى عام ٣١هـ ــ فطويت صفحة الساسانيين ، وأصبحت إيران من ديار المسلمين .

والدارس لتاريخ إيران منذ الفتح الإسلامى إلى يومنا هذا يستطيع أن يتبين فى سُهولة ويسر أنه سار فى اتجاهين واضحين ، كل اتجاه منهما يختلف عن الاتجاه الآخر اختلافا بينا .

أما الاتجاه الأول : فقد غلبت عليه الصبغة السنية ، وهو اتجاه سار فيه تاريخ إيران منذ الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الصفوية فى إيران فى عام ٩٠٦هـ أى مايقرب من تسعة قرون من الزمان .

وأما الاتجاه الثانى : فقد غلبت عليه الصبغة الشيعية ، وهو اتجاه سار فيه تاريخ الإيرانيين منذ قيام الدولة الصفوية الشيعية فى عام ٩٠٦هـ ثم إعلانها المذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا لإيران فى عام ٩٠٧هـ أى منذ خمسة قرون من الزمان .

وقد كان لغلبة كل صبغة من هاتين الصبغتين أثر واضح فى توجيه مظاهر النشاط البشرى فى إيران وفى رسم سياستها الخارجية ، وفى تحديد صلاتها بالدول الإسلامية وغير الإسلامية التى جاورتها أو اتصلت بها ، وأحداث التاريخ الإسلامى ــ قديما وحديثا ــ خير شاهد على صحة مانقول فقد ساهمت إيران فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية ، حين كانت الصبغة السنية غالبة على النشاط البشرى فيها ، فكان كثير من علماء المسلمين . فى مختلف العلوم والفنون ــ من الإيرانيين كما ساهم مجاهدون من الإيرانيين فى نشر الإسلام فى ربوع آسيا ، فأوصلوا نعمة الإسلام إلى شعوب التركستان وآسيا الصغرى والهند والشرق الأقصى ، وحتى وصل المسلمون إلى حدود الصين .

كما كان لغلبة الصبغة الشيعية على إيران أثر فى تفتيت الجبهة الإسلامية ، لأن الخلافات المذهبية بين الشيعة فى إيران وأهل السنة بزعامة الدولة العثمانية ، أدت إلى اشتعال نيران الحرب بين المعسكرين السنى بقيادة العثمانيين والمعسكر الشيعى بقيادة الصفويين فى إيران ، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة ، واستمرت الحروب بين السنة والشيعة أكثر من قرنين من الزمان ، فأدت إلى إنهاك قوى المعسكرين وتمكين المستعمرين من الغرب النصرانى ، من احتلال أكثر ديار المسلمين ، حتى يمكن القول بأن الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ساهمت فى إيجاد كثير من المشاكل التى تعرف الآن بمشاكل الشرق الأوسط .

بل إن الحرب التى اشتعلت نيرانها بين إيران والعراق منذ أكثر من سبع سنوات ، ومازالت نيرانها مشتعلة حتى الآن إحدى نتائج الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة كما أثبتت الدراسة الموضوعية غير المتحيزة لهذه الحرب(١) .

لهذا رأيت من الضرورى والمفيد — فى هذه المرحلة — من تاريخ المسلمين الحديث — أن أؤلف كتابا عن « إيران فى ظل الإسلام » حتى يقف أبناء المسلمين على الأسباب الحقيقية لما يجرى فى العالم الإسلامى المعاصر من أحداث ، لأن المسلمين فى مسيس الحاجة إلى دراسة واقع العالم الإسلامى المعاصر دراسة موضوعية علمية صحيحة ،

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب للمؤلف عنوانه « وماذا بعد البصرة ؟ » للوقوف على معلومات أكثر تفصيلا فى هذا الموضوع .

بعيدة عن التأثر بالعواطف والانفعالات التى تضر ولا تنفع ، وتضلل ولا ترشد إلى الطريق الصحيح ، مع التنبيه إلى مافى كتابات المستشرقين ، وبعض المنتسبين إلى الإسلام من تلاميذهم من معلومات خاطئة مضللة تسيء إلى الإسلام والمسلمين ، لأن كثيرا منهم يعادى الإسلام والمسلمين صراحة ، ومنهم من تخفى صدورهم عداوة أكبر لهذا الدين الحنيف وللمؤمنين به ، فينبغى على المسلمين أن يدرسوا واقع العالم الإسلامى المعاصر دراسة موضوعية علمية صحيحة ، حتى يفهموا سير الأحداث . فى العالم الإسلامى . فهما صحيحا ، فيكون نعاملهم مع الأحداث على هدى وبصيرة .

وما دمنا ندرس واقع العالم الإسلامى المعاصر دراسة موضوعية علمية صحيحة ، فمن الحق أن نقرر أن واقع العالم الإسلامى المعاصر واقع أليم ، ينطق بتخلف الأمة الإسلامية عن قيادة ركب البشرية فى حاضرها ، كما كانت تقود هذا الركب فى ماضيها

لقد عاشت الأمة الإسلامية قرونا عديدة فى مقدمة الأمم حين كان المسلمون متحدين ، فكانت أمتهم هى الأمة الأولى فى العالم كله ، وكانت حضارة المسلمين هى أرقى الحضارات التى شهدها تاريخ البشرية جمعاء ، لأنها كانت حضارة روحية ومادية فاضلة ، فكانت الأمم المعاصرة للأمة الإسلامية تخشى بأسها وتطلب ودها .

ولقد حملت الأمة الإسلامية فى أوقات قوتها وعزتها وتماسكها حضارة الإسلام للعالم كله ، حملتها بالعلم والخلق قبل أن تحمل السيف

فى وجه أعداء المسلمين، ولم تكره أحدا على الدخول فى دينها ، تنفيذاً لأمر رب العالمين القائل فى محكم كتابه العظيم :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1] .

وإنما دخل الناس فى دين الله أفواجا ، لما رأوا صفاء العقيدة الإسلامية وسموها ، واتفاقها مع العقل والمنطق والفطرة السليمة ، وأنه دين يخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور النظم الوضعية إلى عدالة الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

وإن من مصلحة المسلمين أن يدرسوا واقعهم الأليم ، ليعرفوا أن سبب ماأصاب المسلمين من ضعف وتخلف هو ابتعادهم عن كتاب ربهم وهدى نبيهم ، وانقسامهم وتفرقهم فتمككت أمتهم الواحدة إلى دويلات متنازعة ، وأتاحت فرقتهم لأعدائهم أن ينفذوا بين صفوفهم ، ويزيدوهم فرقة وتفككا وضعفا .

وهذا الكتاب عن إيران فى ظل الإسلام يصور جانبا من واقع العالم الإسلامى المعاصر ، ويبين أثر الخلافات المذهبية فى تمزيق صفوف المسلمين ، وإشعال نيران العداوة والبغضاء والحروب بين شعوبهم ، وليست الحرب التى تدور رحاها بين إيران والعراق منذ أكثر من سبع

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

سنوات إلى يومنا هذا إلا صورة من صور هذه الخلافات ، وبيانا لما تؤدى إليه من إضعاف المسلمين ، وفلّ شوكتهم .

وقد جعلت هذا الكتاب بابين ، ودرست فى الباب الأول منهما إيران فى العصور التى غلبت الصبغة السنية — فى أثنائها — على مظاهر النشاط البشرى فيها .

ودرست فى الباب الثانى من الكتاب إيران وهى مصطبغة بالصبغة الشيعية ، وتابعت سير الأحداث فيها إلى يومنا هذا .

وقسمت كل باب منهما إلى فصول على حسب الموضوعات التى تضمنها كل باب .

وواضح أن دراستى دراسة موجزة مركزة تهتم بإبراز الخطوط الرئيسية لسير الأحداث فى إيران فى ظل الإسلام وصلة هذه الأحداث بالدول الإسلامية الأخرى لأنه من غير المعقول أن أتناول تاريخ إيران فى ظل الإسلام بكل أحداثه وجزئياته فى كتاب مثل هذا الكتاب وإنما أردت إبراز الأحداث الكبرى الموجهة لسير التاريخ الإسلامى قديمه وحديثه حتى يلم بها أبناء المسلمين ، ويحاولوا الاستفادة منها ، وأخذ الدروس والعبر من نتائجها .

والكتاب بهذه الصورة — يفيد المتخصصين وغير المتخصصين من أبناء المسلمين .

وأسأل الله العلى القدير أن يتقبل عملى هذا بقبول حسن ، وأن

يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يهدى المسلمين ــ فى جميع أقطارهم ــ سواء السبيل ، إنه حسبنا ونعم الوكيل .

وإنى لأرحب بكل نقد بناء ، وبكل تنبيه إلى أى قصور قد يكون فى بعض مباحث الكتاب لتجنبه فى الطبعة التالية إن شاء الله ــ لأنى أؤمن بأن كل ابن آدم خطاء ، وأن خير الخطائين التوابون

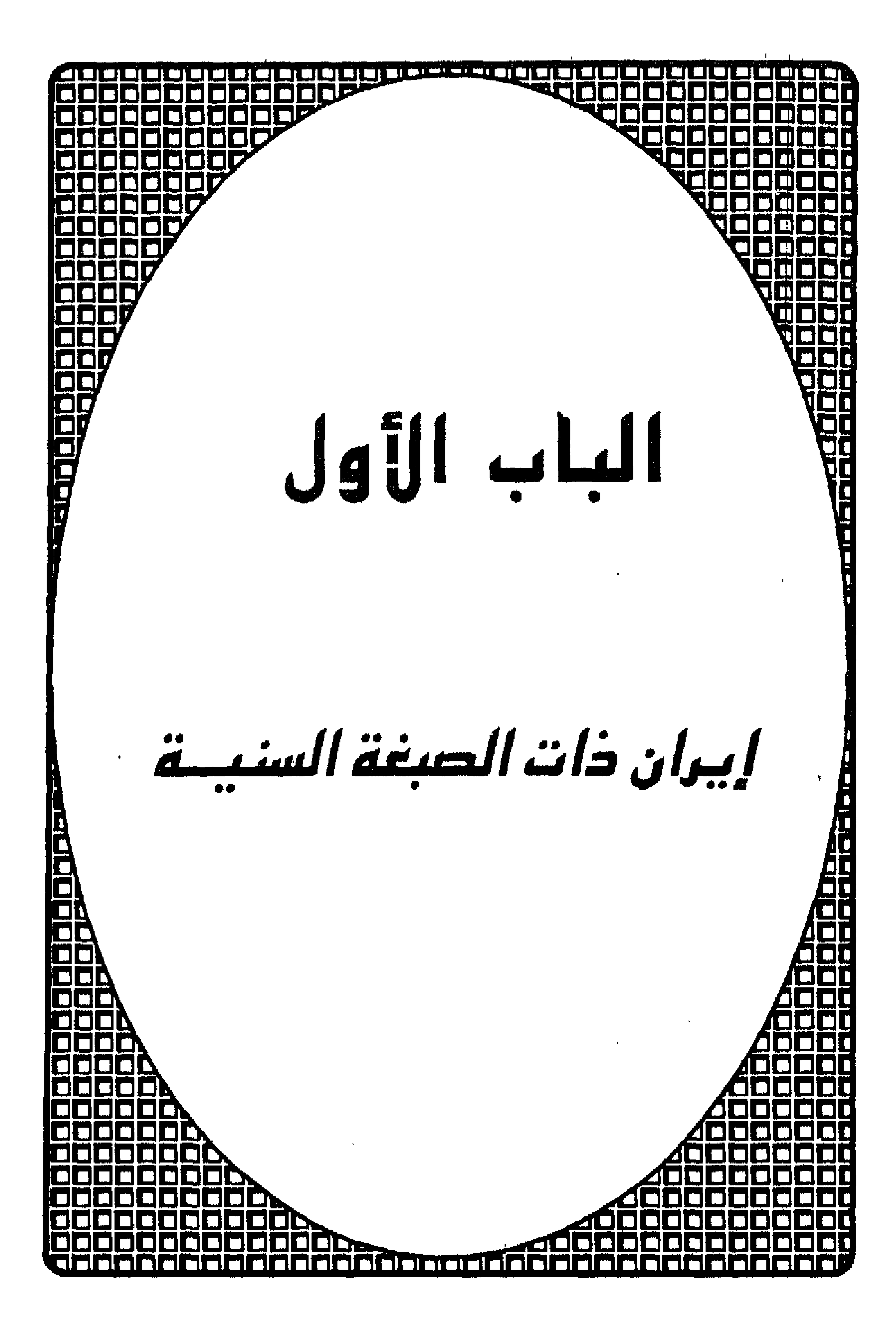
وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

عبد النعيم محمد حسنين

مصر الجديدة فى ١٦ صفر ١٤٠٧هـ

الموافق ٩أكتوبر ١٩٨٧م





الباب الأول

إيران ذات الصبغة السنيـة

الباب الأول
إيران ذات الصبغة السنية

تمهيد :

غلبت الصبغة السنية على إيران المسلمة مايقرب من تسعة قرون من الزمان ــ من عام ٢١هـ إلى عام ٩٠٧هـ ــ ، لأن موقعة نهاوند . التى سميت فتح الفتوح ــ قد حدثت فى عام ٢١هـ ، وكانت موقعة حاسمة ، لم تقم لدولة الساسانيين بعدها قائمة ، ففتحت بعدها أبواب إيران على مصاريعها أمام جند المسلمين فأخذوا يسيطرون على الأقاليم الإيرانية المختلفة ، إقليما فى إثر إقليم ، حتى تمت للمجاهدين المسلمين السيطرة على جميع أنحاء إيران فى سهولة ويسر ، ودون مقاومة تذكر ، بعد أن تمزق جيش يزدجرد الثالث . ــ آخر ملوك الساسانيين ــ وهرب إلى خراسان ومنها إلى مرو ــ فى إقليم ماوراء النهر ــ فى محاولة يائسة لجمع الجند ، وانتهى أمره بالقتل فى عام ٣١هـ . فَعُدَّ هذا العام نهاية فعلية لزوال الدولة الساسانية ، وإن كانت هذه الدولة قد زالت زوالا حقيقيا بعد موقعة نهاوند فى عام ٢١هـ .

صحيح أن السيطرة على مختلف أنحاء إيران قد استغرقت عشر سنوات بعد موقعة نهاوند ، ولكن السبب فى طول هذه المدة يرجع إلى اتساع رقعة الهضبة الإيرانية وليس إلى وجود مقاومة فارسية للفتح

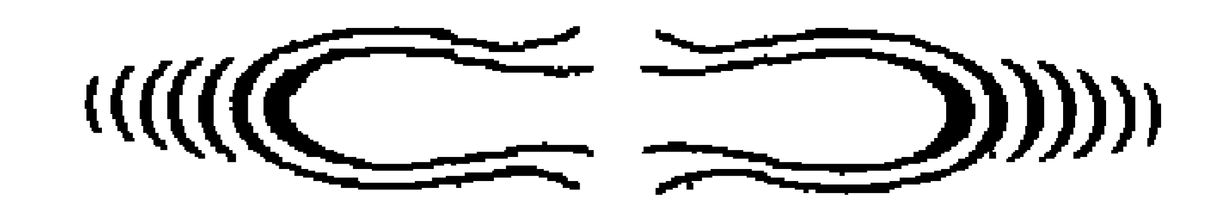
الإسلامى ، فإيران — كما هو معروف — هضبة مرتفعة مترامية الأطراف لا يوجد فيها بلد إلا وفيه جبل ، وجبالها شاهقة الارتفاع ، وعرة المسالك ، مما يجعل اجتيازها يستغرق وقتا طويلا ، وبخاصة فى فصل الشتاء ، حين تغطى الثلوج قمم الجبال وتسد مسالكها .

ولهذا فإن الدارسين يعدون انتصار المسلمين فى موقعة نهاوند فى عام ٢١هـ — بداية حقيقية لدخول إيران تحت راية الإسلام ، فقد أخذت أشعة شمس الإسلام تضيء ربوعها بنور الإسلام منذ ذلك الوقت ، فأقبل الإيرانيون على الدخول فى دين الله أفواجا ، وصارت إيران من بلاد المسلمين منذ ذلك التاريخ ، وأخذ الإيرانيون المسلمون يساهمون فى الغزوات الإسلامية ، لنشر دين الله الحق فى الآفاق ، وإيصال نعمة الإسلام إلى الشعوب المجاورة لهم ، والمساهمة فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الفاضلة الرفيعة .

وقد عاشت إيران فى ظل الإسلام منذ شروق شمس الإسلام على جنباتها فى عام ٢١هـ إلى عام ٩٠٧هـ وهى سنية المذهب فى عصور الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، وظلت سنية المذهب بعد سقوط الخلافة العباسية ، إلى أن قامت للصفويين دولة فيها — فى عام ٩٠٦هـ — ثم أعلن الصفويون — فى عام ٩٠٧هـ — المذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا لدولتهم ، فأخذت إيران منذ ذلك التاريخ تصطبغ بالصبغة الشيعية ، ولم تلبث هذه الصبغة أن غلبت على جميع مظاهر

النشاط البشرى فى إيران ، ولاتزال الصبغة الشيعية غالبة عليها إلى يومنا هذا .

وواضح مما ذكرنا أن الصبغة السنية غلبت على الحضارة الإيرانية مايقرب من تسعة قرون من الزمان ، وسأحاول فى الفصول التى يتضمنها هذا الباب أن أبرز ملامح النشاط البشرى فى إيران المسلمة فى المرحلة التي غلبت الصبغة السنية على مظاهر حضارتها والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد .



الفصل الأول

الفتح الإسلامى لإيران

كانت إيران ــ حين سطعت شمس الإسلام ــ تحت حكم الساسانيين ، فكانت تعانى فساد نظامهم الإقطاعى فى أسوأ صورة ، لأن شعبها كان مقسما إلى طبقات ، تتفاوت فيما بينها قدرا وشرفا ، وكان الحاكم الإيرانى إذا استعمل لونا فإن استعمال هذا اللون يحرم على سائر أفراد شعبه ، وإذا لبس نوعا من القماش أو تختم بخاتم فإن ما يستعمله يحرم استعماله على شعبه ، كما كان كل فرد من أفراد الشعب الإيرانى يؤدى ضريبة سنوية تسمى ضريبة الرءوس ، ويؤمن بأن الملك ظل الله فى الأرض ، لأنه يدين بالمجوسية ، التى رفع رايتها زردشت منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وصارت الدين الرسمى لإيران حتى الفتح الإسلامى لهذه البلاد

والمجوسية دين غير سماوى يؤمن بوجود إلهين إله للخير وآخر للشر ، وبأن الملك ظل الله فى الأرض ، ويحيط رجال الدين بشىء من القداسة ، يجعلهم طبقة مميزة .

وكانت إيران ــ قبل الفتح الإسلامى ــ إحدى دولتين

عظميين فى العالم ، فكانت هى ودولة الروم أعظم قوتين فى العالم ، وكانت دولة الفرس فى إيران تمثل قوة الشرق ودولة الروم ـــ التى عاصمتها القسطنطينية ـــ تمثل قوة الغرب ، وكان الفرق بينهما هو أن الروم يدينون بالنصرانية ، وهى دين سماوى ، بينما يدين الفرس بالمجوسية وهى دين وثنى غير سماوى .

وكانت دولة الفرس فى إيران تبسط نفوذها على إقليم الحيرة وهو جزء من شبه الجزيرة العربية ، كانت توجد فيه دولة المناذرة ، فكان حكام هذه الدولة يدينون بالطاعة والولاء للملك الفارسى ، ويؤدون له ضريبة سنوية ويتولون حراسة قوافل التجارة الإيرانية .

وقد ظلت إيران على صلة بالعرب حتى أشرقت شمس الإسلام على شبه الجزيرة العربية بعد أن أرسل الله خاتم أنبيائه ورسله النبى العربى ـــ محمد بن عبد الله ـــ ﷺ ـــ إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فدعا الملوك والرؤساء إلى الدخول فى دين الله الحق حتى يسلموا وتسلم شعوبهم ، وكان كسرى فارس ـــ برويز ـــ أحد الملوك الذين أرسل الرسول ـــ ﷺ ـــ رسالة يدعوه فيها إلى الدخول فى الإسلام ، ولكنه أبى ، وطرد مبعوث الرسول ـــ ﷺ ـــ فدعا الرسول عليه أن يمزق ملكه ، فاستجاب الله دعاء الرسول وبشره بقرب هزيمة الفرس على أيدى الروم فى قوله تعالى :

﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

وقد انتصر الروم — وهم أهل كتاب — على الفرس بعد تسع سنين من نزول هذه الآيات ، أى بعد بضع سنين كما قال رب العالمين .

ثم بدأ فتح إيران على أيدى المجاهدين المسلمين[2] فى عام ١٣هـ فى أواخر عهد الخليفة الراشد الأول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — حين جاء أحد رؤساء العرب ويدعى المثنى بن حارثة من قبيلة بنى شيبان إلى الخليفة أبى بكر ووصف له سوء الحالة فى إيران ، وكان المثنى قد استولى على جزء من أراضى الحدود الإيرانية يسمى « السواد » فوقف على حقيقة الحالة فى إيران مما شجعه على التوجه إلى خليفة المسلمين ليستأذنه فى السماح له بالتوجه لغزو إيران ، فوافق أبو بكر — رضى الله عنه — على أن يتوجه المثنى وقبيلته لفتح إيران ، على أن يكون هو وقبيلته تحت إمرة خالد بن الوليد الذى كان أبو بكر قد أرسله لفتح الحيرة ، فتمكن من فتحها فى عام ١٣هـ

وقد استطاع المثنى وقبيلته فتح بعض الأراضى المجاورة لمنطقة السواد ، ثم توفى الخليفة أبو بكر — رضى الله عنه — وخلفه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فاستمرت حركة فتح إيران بجيش يقوده

(١) سورة الروم : آية ١ — ٥ .

(٢) سأذكر وقائع الفتح الإسلامى لإيران بإيجاز مبرزا الأحداث الهامة الموجهة فى تاريخ إيران المسلمة ، ويمكن للراغبين فى الحصول على معلومات أكثر تفصيلا أن يرجعوا إلى تاريخ الطبرى ، أو فتوح البلدان للبلازرى ، أو غرر أخبار ملوك الفرس للثعالبى .

أبو عبيدة الثقفى الذى حاول غزو إيران من الجنوب الغربى عن طريق خوزستان[1] فالتقى بجيش إيرانى فى منطقة تسمى الجسر — فى عام ١٢هـ — وعرفت الموقعة باسم « موقعة الجسر » ، وقد انتهت بهزيمة المسلمين وقتل قائدهم ، مما يدل على قوة الفرس ، وشدة بأسهم .

ولم تَفُتّ هذه الهزيمة فى عضد المجاهدين المسلمين ، فعاودوا الفتح بقيادة سعد بن أبى وقاص فى عام ١٤هـ والتقى جيش المسلمين بجيش إيرانى كثير العدد والعُدد عند القادسية — بالقرب من الكوفة — فى العام المذكور ، وتمكن المسلمون من إنزال هزيمة نكراء بالجيش الإيرانى ، ثم واصلوا تقدمهم نحو المدائن[2] عاصمة الساسانيين ، ونجحوا فى دخولها والسيطرة عليها ، بينما فرّ يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين إلى داخل الأراضى الإيرانية فى طريقه إلى مدينة أصفهان بعد أن تشتت جنده .

• وموقعة القادسية ذات أهمية كبيرة فى التاريخ الإسلامى بالنسبة للمسلمين العرب وللإيرانيين على السواء .

أما بالنسبة للمسلمين العرب فقد فتح لهم هذا النصر العظيم

---

(١) هذا الإقليم يسمى فى الحقيقة « عربستان » أى الأقليم الذى يسكنه العرب وهو يقع على الخليج من جهة إيران ، وقد غير الإيرانيون اسمه إلى « خوزستان » .

(٢) « المدائن » هو الاسم العربى الذى أطلقه المسلمون على عاصمة الساسانيين بدلا من اسمها القديم « طيسفون » ومعنى « طيسفون » « ثلاث مدن » لأن العاصمة كانت ثلاث مناطق متصلة كل منطقة منها تصلح مدينة ، فسماها المسلمون المدائن ، ومازالت أطلال المدائن شاخصة على بعد أربعين كيلوا مترا من بغداد العاصمة الحالية وتسمى « مدائن كسرى » .

الطريق إلى عاصمة الساسانيين فدخلوها دخول الظافرين ، مما شجعهم على مواصلة التقدم ـــ بعد ذلك ـــ داخل الأراضى الإيرانية حتى بلغوا هدفهم المنشود ، فأسقطوا دولة الساسانيين ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق الأراضى الإيرانية كلها وحملوا نعمة الإسلام إلى الإيرانيين ، فتركوا المجوسية دينهم الوثنى القديم ، واعتنقوا مبادىء الإسلام دين الله الحقّ الذى لايقبل من مخلوق دين غيره .

وأما بالنسبة للإيرانيين فقد كان انتصار المسلمين فى القادسية بداية تحول خطير فى تاريخ إيران وحضارتها فقد أخذت شمس الإسلام ـــ منذ ذلك الوقت ـــ تشرق على أراضيها ، وتصبغ جميع مظاهر النشاط البشرى فيها بالصبغة الإسلامية ، فصارت إيران من بلاد المسلمين وأخذ شعبها يساهم فى الفتوحات الإسلامية ، وفى نشر الإسلام فى ربوع القارة الآسيوية ، كما يساهم فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية فى مختلف العلوم والفنون وينعم بما فى مبادىء الإسلام القويمة من عدالة وسماحة وحرية ومساواة لم يشهد لها التاريخ مثيلا .

وواصل المجاهدون المسلمون تقدمهم داخل الأراضى الإيرانية ، وتمكنوا من فتح الجزء الجنوبى من إيران ، بينما تقهقر يزدجرد الثالث إلى منطقة أصفهان فى وسط إيران ، وأخذ يجمع الجند فى محاولة أخيرة لاسترداد ماضاع منه ، وأرسل جيشا لإيقاف تقدم جيش المسلمين ، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة ـــ عند جلولاء ـــ فى عام ١٨هـ انتهت باندحار جيش يزدجرد الثالث وتقهقره صوب أصفهان ، بينما واصل

جيش المسلمين تقدمه صوب هذه المدينة .

وظل يزدجرد الثالث يجمع الجند ، حتى جشد جيشا جرارا كثير العدد والعتاد عند نهاوند بالقرب من أصفهان ، وهى منطقة حصينة محاطة بالجبال العالية الوعرة المسالك حتى يستطيع أن يوقع بجيش المسلمين .

وتقدم جيش المسلمين حتى بلغ نهاوند فدارت بين الطرفين معركة عنيفة ــ فى عام ٢١هـ ــ انتهت بانتصار المسلمين انتصارا مبينا ، واندحار جيش يزدجرد اندحارا مشينا ، فتمزق شمله وفر يزدجرد الثالث إلى الشمال الشرقى من إيران مدحورا مذعورا ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، مما جعلهم يسمون موقعة نهاوند « فتح الفتوح » .

وكانت موقعة نهاوند موقعة فاصلة حاسمة فى التاريخ الإسلامى ، فلم تقم للساسانيين بعدها قائمة ، ولم تظهر لهم مقاومة للفاتحين المسلمين الذين تمكنوا بعدها من السيطرة على جميع أرجاء إيران فى سهولة .

وصحيح أن سيطرة المسلمين على الأراضى الإيرانية المختلفة استغرقت عشر سنوات بعد انتصارهم المبين فى موقعة نهاوند ــ فى عام ٢١ هـ ــ ولكن السبب فى طول المدة كان نتيجة لاتساع رقعة الأراضى الإيرانية وليس نتيجة لوجود مقاومة من جانب يزدجرد الثالث الذى أفل نجمه بعد هزيمة جيشه ــ عند نهاوند ــ وظل هائما على وجهه إلى أن قتل فى عام ٣١هـ ، فكان هذا التاريخ نهاية للدولة الساسانية . من

الناحية التاريخية . ولكن نهايتها الحقيقية الفعلية كانت فى عام ٢١هـ بعد هزيمة يزدجرد الثالث فى موقعة نهاوند الفاصلة الحاسمة .

ولهذا يعد عام ٢١هـ بداية لدخول إيران تحت راية الإسلام وبدءاً لتاريخها الإسلامى ، وعيشها فى ظل الإسلام ، واصطباغ حضارتها بالصبغة الإسلامية ، مساهمتها فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية .

بقيت مسألة أحب أن أوضحها بعد أن عرضت فى إيجاز شديد ــ كيفية شروق شمس الإسلام على الأراضى الإيرانية ، ألا وهى تسمية هذا الفتح بالفتح الإسلامى لا بالفتح العربى لأن المستشرقين وتلاميذهم من الدارسين من المسلمين وغير المسلمين يصرون على تسمية هذا الفتح بالفتح العربى لإيران وهى تسمية تثير الإيرانيين ضد العرب ، ويحرص عليها الإيرانيون فى دراساتهم ، ويلقنونها لأبنائهم حتى يَنْشأوا كارهين للعرب الذين فتحوا بلادهم وأذلوا كبرياءهم ، وحولوا بلادهم من دولة عظمى إلى ولاية تابعة للحكم الإسلامى وجعلهم تابعين للعرب بعد أن كان العرب أقل منهم شأنا وبعد أن كان جزء من بلاد العرب ــ تقوم فيه إمارة المناذرة ــ من المناطق الخاضعة لنفوذ الفرس ، التى تدين بالطاعة والولاء لملوك الساسانيين .

نعم أقول إن فتح إيران على أيدى المجاهدين المسلمين ينبغى أن يسمى الفتح الإسلامى لإيران فقد فتح المسلمون إيران بجنود من العرب المسلمين كما فتح المسلمون بلاد التركستان والهند وآسيا الصغرى بجنود

من المسلمين الإيرانيين والأتراك . فالمجاهدون المسلمون هم الذين قاموا بالغزوات الإسلامية ونشروا نور الإسلام فى الآفاق ، وحملوا نعمة الإسلام إلى إخوانهم فى البشرية .

والمسلمون فى جميع أقطارهم فى حاجة ماسة إلى الاتحاد والتآلف ونبذ عوامل التفرقة والانقسام حتى يستعيدوا أمجادهم ويتصدوا — جبهة واحدة — لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، ويستفيدون من تفرقهم ، ويحرصون على إشاعة أسباب الفرقة بينهم .

لهذا رأيت أن أنبه إلى سبب من أسباب إشاعة العداوة بين الإيرانيين والعرب المسلمين الذين تظلهم جميعا راية الإسلام ، ولن يستعيدوا قوتهم ومجدهم إلا إذا كانوا إخوة متعاونين كأعضاء الجسد الواحد .

والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد

وهو سبحانه المستعان ، وعليه التكلان

الفصل الثانى
غلبة الصبغة السنية على إيران

بدأ الفتح الإسلامى لإيران فى عهد أبى بكر ووصل إلى مرحلة حاسمة فى عهد عمر بن الخطاب وسيطر سيطرة تامة على إيران فى عهد عثمان بن عفان ـــ رضى الله عنهم أجمعين ـــ

وأقبل الإيرانيون على الدخول فى الإسلام أفواجا طواعية واختيارا ، لأن الإسلام لايكره أحدا على الدخول فبه تطبيقا لقول رب العالمين سبحانه :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم ﴾[١] .

لقد أعجب الإيرانيون بما فى الإسلام من عدل ومساواة وسماحة ويسر فاستظلوا بظله ، وحسن إسلامهم فأخلصوا له ، وحرصوا على نشره ، ليهتدى بنوره الحيارى والضالين من الشعوب المجاورة لهم .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

وهكذا أخذت صبغة الإسلام تظهر فى إيران منذ عهد الخلفاء الراشدين من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ وهم أهل السنة ، الذين كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، يهتدون بهديه ، وينتهجون نهجه ، ويسيرون على دربه ، فاتبع الإيرانيون مذهب أهل السنة والجماعة منذ دخولهم فى الإسلام ، واستظلالهم برايته ، وصيرورة إيران ولاية من الولايات الإسلامية وحصنا من حصون الإسلام والمسلمين .

والملاحظ أن الفتح الإسلامى لإيران اتجه من الغرب إلى الشرق نظراً لموقع إيران الجغرافى بالنسبة لشبه الجزيرة العربية التى بدأ شروق شمس الإسلام على أراضيها ، حين اقتضت حكمة الله العليم الخبير أن يكون آخر أنبيائه ورسله عربيا ، وأن تكون أمة العرب هى التى تحمل رسالة الإسلام إلى العالمين ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان لموقع إيران الجغرافى أثر فى انتشار الإسلام والصبغة السنية فى الأراضى الإيرانية ، فظهرت صبغة الإسلام فى غربى إيران بوضوح وقوة ، وكان وضوحها وقوتها يقلان كلما اتجهنا شرقا ، فكانت منطقة خراسان وما وراء النهر أقل جهات إيران تأثرا بالصبغة الإسلامية فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى الذى تم فيه فتح المسلمين لإيران .

وقد ساعد على انتشار الإسلام فى إيران وظهور الصبغة السنية فيها هجرة كثير من القبائل العربية إلى الأراضى الإيرانية والإقامة فيها ، ثم اختلاط أفراد هذه القبائل العربية بالإيرانيين ، وارتباطهم بهم برباط المصاهرة ، مما أدى إلى اختلاط الدماء وتداخل الأنساب ، وزيادة

انتشار النفوذ الإسلامى والتأثير العربى فى الأراضى الإيرانية .

وكان استقرار القبائل العربية ــ التى هاجرت إلى إيران عقب الفتح الإسلامى لها ــ واضحا فى القسم الجنوبى الشرقى من إيران نتيجة لموقع إيران الجغرافى كما ذكرنا ، لأن القبائل العربية المهاجرة على ظهور الدواب ، لم يكن فى مقدورها أن تواصل السير فى أراضى الهضبة الإيرانية ذات الجبال المرتفعة والمسالك الوعرة إلى مسافات بعيدة ، فكانت تلقى عصا الترحال فى القسم الجنوبى الشرقى من إيران ، وتقيم فيه أجيالا قبل أن تفكر فى الهجرة إلى أجزاء أخرى فى وسط إيران أو فى شرقيها فكان منطقيا أن يظهر أثر الصبغة الإسلامية السنية والنفوذ العربى فى المناطق الجنوبية الشرقية من إيران بوضوح وقوة فى القرن الأول الهجرى ، وكانت قبيلة المثنى بن حارثة الشيبانى من أوائل القبائل التى هاجرت إلى إيران واستقرت فى الأراضى الإيرانية القريبة من الخليج ولحقت بها قبائل أخرى استقرت فى منطقة الخليج حتى سميت هذه المنطقة « عربستان » أى « بلاد العرب » أو المنطقة التى يسكن فيها العرب ، وظلت معروفة بهذا الاسم إلى أن غيّر الإيرانيون اسمها إلى « خوزستان » .

غير أن الصبغة الإسلامية السنية لم تلبث أن سيطرت ــ تدريجيا ــ على سائر أنحاء إيران غربا وشرقا وجنوبا وشمالا نتيجة لإقبال الإيرانيين على الدخول فى الإسلام ، كما أقبلوا على تعلم العربية لغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة حتى يتعلموا أمور دينهم ، فظهر النفوذ العربى فى إيران ، وتغلغل فيها إلى درجة كبيرة ، فازداد الإيرانمن إقبالا

على دراسة العربية والتخصص فيها ، حتى أصبح كثير من علماء العربية فى اللغة والنحو والفقه والتفسير والتاريخ من أصل فارسى ، وكان من نتيجة هذا إضعاف اللغة الفارسية — لغة إيران الأصلية — فهُجِرَت الكتابة بها ، وتحولت إلى لغة عامية فى القرى والأماكن النائية فى القسم الشرقى من إيران البعيد عن مركز الخلافة الإسلامية السنية ، ففقدت كثيرا من مقوماتها ومصطلحاتها ، وظلت مختفية — كلغة كتابة وأدب وعلم — قرنين من الزمان ، فلم يكن يسمع لها صوت أو يرى لها أثر مكتوب .

وكان الإيرانيون يحبون آل بيت رسول الله — ﷺ — من نسل فاطمة وعلى بن أبى طالب — رضى الله عنهما — لأن الحسين بن على تزوج بنت يزدجرد الثالث — آخر ملوك الساسانيين — وكان اسمها « شهربانو » أى « سيدة المدينة » وأنجب منها ابنه على زين العابدين — رضى الله عنه — أى أن « على زين العابدين » بن « الحسين » رضى الله عنهما كانت تجرى فى عروقه دماء عربية وفارسية ، وكان الإيرانيون يعدون أنفسهم أخوالاً على زين العابدين ، فتعصبوا للحسين بن على ونسله من ابنه على زين العابدين ، وكان لهذا التعصب أثر واضح فى تاريخهم الإسلامى قديما وحديثا .

وقد أدى تعصب الإيرانيين للحسين بن على — رضى الله عنه — إلى كرههم للأمويين الذين أقدموا على قتل الحسين فى عهد يزيد ابن معاوية فى يوم عاشوراء من عام ٦١هـ ، وهو كره دفعهم إلى تشويه

تاريخ الأمويين إلى درجة تكفيرهم وإخراجهم من دائرة الإسلام .

وظهر كره الإيرانيين للأمويين فى سلوكهم ، فقد ناصبوا الأمويين العداء بعد مقتل الحسين ، وانضموا إلى مختار الثقفى حين ثار فى الكوفة فى عام ٦٥هـ ــ مطالبا بدم الحسين ، وداعيا إلى الأخذ بالثأر له من قتلته الأمويين .

كما انضم الإيرانيون إلى أعداء الأمويين الذين طالبوا بإسقاط دولتهم ، ونقل الخلافة إلى واحد من آل بيت الرسول ــ ﷺ ــ يرتضونه ويبايعونه من غير الأمويين ، وكان لأبى مسلم الخراسانى القائد الإيرانى المعروف دور واضح مشهور فى القضاء على الدولة الأموية ونقل الخلافة الإسلامية إلى العباسيين .

وقد ساعد انتقال الخلافة إلى العباسيين على ازدياد نفوذ الإيرانيين فى الدولة العباسية منذ بدايتها فقد احتل الإيرانيون منصب الوزارة فى هذه الدولة أكثر من نصف قرن من الزمان . من عام ١٣٢ إلى عام ١٨٧ هـ أى منذ عهد السفاح أول خلفاء العباسيين إلى عهد هارون الرشيد خامس خلفائهم ، حتى عُدَّ قضاء الرشيد على البرامكة الإيرانيين انتصارا للعرب على النفوذ الإيراني الذى كان ظاهرا ملموسا فى الدولة العباسية .

غير أنه أخذ يظهر من جديد فى عصر الخليفة المأمون بن الرشيد حين حدث خلاف بين الأمين ــ الخليفة بعد أبيه الرشيد ــ وبين أخيه المأمون ، وأدى هذا الخلاف إلى نشوب الحرب بينهما ،

فانضم الإيرانيون إلى معسكر المأمون لأن أمه كانت إيرانية ، وقاد طاهر ابن الحسين الإيراني الأصل جيش المأمون ، وقام بما قام به أبو مسلم الخراساني من قبل فقاتل الأمين وانتصر عليه وقتله ، فآلت الخلافة إلى المأمون ، وعُدَّ هذا انتصاراً للإيرانيين على العرب لأن النفوذ الإيرانى أخذ يعود من جديد ، فتولى الإيرانيون منصب الوزارة فى عهد المأمون ، كما كانوا يتولونها من قبل .

وأدى ظهور النفوذ الإيرانى فى فترات من حكم العباسيين إلى حدوث امتزاج حضارى بين المسلمين من عرب وإيرانيين ، فكثر التزواج بين الجنسين ، مما أدى إلى اختلاط الدماء ، وظهور جيل من المولَّدين ، وتبادل العادات والتقاليد ، وظهور الملابس الإيرانية فى المجتمع الإسلامى والاحتفال ببعض أعياد الإيرانيين القدماء كالنوروز(١)والمهرجان ، كما تبادلت اللغتان العربية والفارسية كثيرا من الألفاظ والمصطلحات ، ولكن تأثير العربية فى الفارسية كان أكثر قوة ووضوحا ، كما نُظِّمت الدواوين فى دار الخلافة الإسلامية على الطريقة الإيرانية ، ظهر ذلك فى استعمال نفس الألفاظ الفارسية مثل وزير وديوان ودستور مما جعل العصر العباسى عصر امتزاج حضارى بين العرب والفرس فى بوتقة الإسلام .

وظلت الصبغة السنية غالبة على إيران فى ظل الإسلام طوال

---

(١) النوروز كلمة فارسية مركبة معناها اليوم الجديد وهو بداية السنة الإيرانية فى ٢١ مارس غالبا — من كل عام ، وهو أعظم الأعياد الإيرانية البهيجة حتى يومنا هذا .

العصر العباسى ــ من عام ١٣٢ هـ ــ إلى عام ٦٥٦ هـ ــ كما ظل نفوذ العربية قويا فى الفارسية ، وقد ساعد على ذلك إسلام الإيرانيين وإقبالهم على تعلم العربية والتخصص فى علومها المختلفة ، كما ساعد على قوة نفوذ العربية ما أصاب الفارسية من هجر من ناحية ومن قضاء على تراثها من ناحية أخرى نتيجة لحركة الزندقة التى ظهرت فى عهد الخليفة العباسى المهدى ، وكان دعاتها من الإيرانيين مما جعل الدولة العباسية فى قمعها لهذه الحركة تحرق الكتب الفارسية التى بقيت من تراث إيران قبل الإسلام فأصيبت اللغة الفارسية بمزيد من الضعف ، كلغة مكتوبة وبقيت مستعملة ــ كلغة عامية ــ فى المناطق النائية عن مركز الخلافة الإسلامية ، وازدادت الصبغة الإسلامية السنية قوة ووضوحا فى إيران باعتبارها قطرا من الأقطار الإسلامية السنية .



الفصل الثالث

قيام دول شبه مستقلة فى إيران السنية

ظلت إيران تابعة تبعية كاملة للخلافة العباسية السنية إلى بداية القرن الثالث الهجرى ، ولكن النفوذ العربى فى الأماكن البعيدة عن مقر الخلافة العباسية كان ضعيفا مما جعل القسم الشمالى الشرقى من إيران مركزا لحركات التمرد ضد النفوذ العربى ، والدعوة إلى الاستقلال والانفصال عن جسم الخلافة العباسية بكل وسيلة ممكنة .

وحانت الفرصة فى إقليم خراسان ــ فى عام ٢٠٥ هـ ــ حين أراد الخليفة المأمون أن يكافىء قائده طاهر بن الحسين على انتصاره على أخيه الأمين فأسند إليه أمر خراسان فانتهز طاهر هذه الفرصة فأسس دولة سماها الدولة الطاهرية ظلت حاكمة أكثر من خمسين عاما فى إقليم خراسان ــ من عام ٢٠٥ هـ ــ إلى عام ٢٥٩ هـ ــ .

وهكذا ظهرت نزعة الاستقلال عن العرب فى إيران منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ، وازدادت بعد ذلك فى عهود الدول التى خلفت الدولة الطّاهرية كالدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة

الغزنوية ،[1] ولكن الصبغة السنية ظلت غالبة على مظاهر النشاط البشرى فى إيران طوال حكم العباسيين .

وكان نفوذ الدول التى قامت فى إيران فى أثناء حكم الخلفاء العباسيين يتفاوت بتفاوت ما لحكامها من قوة . وكان حكامها ـــ من الناحية الشكلية ـــ يدينون بالولاء للخليفة العباسى ، باعتباره أمير المؤمنين وإمام المسلمين ، وخليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ لاعتقادهم بأن موافقته على توليهم السلطة يعطى حكمهم صفة شرعية أمام الناس ، فكانوا يحرصون على الظفر بموافقة الخليفة ، حتى لو دفعوا فى مقابل هذه الموافقة ضريبة سنوية للخليفة ، غير أنهم فى الحقيقة كانوا مستقلين استقلالا يكاد يكون تاما فى إدارة البلاد التى يحكمونها ، لاسيما بعد أن أخذ الخلفاء العباسيون فى الضعف ـــ منذ منتصف القرن الثالث الهجرى ـــ فلم تعد لهم قوة مادية تمكنهم من القيام بدور إيجابى موجه فى سير الأحداث فى أنحاء العالم الإسلامي لخضوعهم لنفوذ قواد الجيش والوزراء وكبار الحجاب وبعض الزوجات ، فأصبح نفوذهم روحيا أكثر منه ماديا باعتبارهم خلفاء رسول الله الذين تهفو إليهم قلوب المسلمين من أهل السنة فى أنحاء العالم الإسلامى المترامى الأطراف مما جعل الحكام فى الأقطار الإسلامية المختلفة يحرصون على موافقتهم على

---

(١) إن هدفنا فى هذا الكتاب بيان أثر الصبغة السنية فى حضارة إيران فى ظل الإسلام بصفة عامة وليس دراسة تاريخ هذه الدولة دراسة تفصيلية ، ومن يريد دراسة تفصيلية يمكنه الرجوع إلى كتب التاريخ مثل تاريخ الطبرى وفتوح البلدان للبلاذرى وغرر أخبار ملوك الفرس للثعالبى .

تولى السلطة بإصدار منشور التولية من قبل دار الخلافة ليكسبوا سلطانهم صفة شرعية أمام رعاياهم .

وتوالى ظهور مثل هذه الدول فى إيران منذ أوائل القرن الثالث الهجرى — كما ذكرنا — فبدأت بظهور الدولة الطاهرية فى عام ٢٠٥ هـ ، وهى الدولة التى أسسها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون واستمر حكمها على أيدى أبنائه وأحفاده إلى عام ٢٥٩ هـ — كما بينا — ثم خلفتها الدولة الصفارية التى أسسها يعقوب بن الليث الصفارى الذى كان — فى الأصل — نحاسا وقاطعا من قطاع الطريق ، غير أنه كان شخصية قوية ذات نفوذ فى منطقة خراسان وهراة ، فعين من قبل الدولة الطاهرية واليا على إقليم خراسان ، ولكنه سارع بإسقاط هذه الدولة — فى عام ٢٥٩ هـ — وأقام دولة جديدة سماها الدولة الصفارية ظلت تحكم بواسطة أبنائه وأحفاده من بعده إلى عام ٢٩٣ هـ .

وقد تمكن يعقوب بن الليث الصفارى من بسط نفوذ الصفاريين على كرمان وفارس وأصفهان ، بل حاول أن يغزو دار الخلافة ببغداد — نفسها — غير أنه فشل وظل قويا فى الأقاليم الإيرانية التى سيطر عليها إلى أن توفى — فى عام ٢٦٥ هـ — فخلفه فى السلطة أخوه عمرو ابن الليث الصفارى ، ولكن شخصية جديدة لم تلبث أن ظهرت فى إقليم ما وراء النهر ، وهى شخصية إسماعيل السامانى الذى أخذ يناوىء الصفاريين ، فبدأ صراع بين المعسكرين الصفارى والسامانى ، انتهى بانتصار السامانيين فى عام ٢٧٩ هـ ، وانتزاعهم السيطرة على شرقى إيران ، وتأسيس دولة جديدة عرفت باسم الدولة السامانية ظل حكامها

ممثلين فى إسماعيل مؤسس الدولة وأبنائه وأحفاده يحكمون هذه المنطقة الشرقية ـــ التى تضم خراسان وما وراء النهر ـــ أكثر من قرن من الزمان ـــ من عام ٢٧٩ هـ ، إلى عام ٣٨٩ هـ ـــ .

وكان السامانيون أسرة تجرى فى عروق أبنائها دماء إيرانية ، لأنهم كانوا ينتسبون إلى بهرام جوبين قائد الجيش فى عصر الملك خسرو برويز الذى بُعِثَ رسول الإسلام محمد بن عبد الله ـــ ﷺ ـــ فى عصره ، وهو الملك الإيرانى الذى بعث الرسول إليه رسالة يدعوه فيها للدخول فى الإسلام ولكنه أبى ـــ كما ذكرنا ـــ وكان تولى السامانيين حكم أجزاء من إيران المسلمة السنية فرصة لظهور بعض مظاهر الحضارة الإيرانية القديمة قبل الإسلام فى نظم الحكم وترتيب الديوان واستعمال اللغة الفارسية ، وتحويلها من لغة عامية إلى لغة مكتوبة . فظهرت على مسرح الاستعمال وكتب بها الأدب الفارسى شعرا ونثرا وألفت بها الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، ولكنها ظهرت والأثر العربى واضح فيها كل الوضوح ، فقد كتبت بالحروف العربية ، وامتزجت بكثير من العناصر العربية فدخلتها كلمات واصطلاحات عربية كثيرة ، فأصبح ثوبها عربيا وصار كثير من ملامحها عربيا ومازالت فى هذه الصورة حتى يومنا هذا ، وهى تسمى الفارسية الإسلامية الحديثة .

وقد وصلت الدولة السامانية إلى أوج قوتها فى عصر نصر بن أحمد السامانى فسيطرت على أقاليم ما وراء النهر وخراسان وسجستان وطبرستان والرى وكرمان ، وبرغم أن السامانيين أحيوا كثيرا من مظاهر

الحضارة الإيرانية القديمة ، فإنهم لم يخرجوا عن طاعة الخليفة العباسى ، فاعترفوا له بالسيادة الروحية عليهم ، وكانوا يتبعون المذهب السنى ، مما جعل علماء ما وراء النهر يشدون أزرهم ويناحرونهم .

وتعد الدولة السامانية ـــ فى نظر الإيرانيين ـــ أهم دولة ظهرت فى إيران ـــ بعد الفتح الإسلامى لها ـــ لأنها أحيت مظاهر الحضارة الإيرانية القديمة ، وقوت الشعور الوطنى ، وساعدت على رواج اللغة الفارسية .

والإيرانيون يتعصبون لهذه الدولة ، برغم أنها وجدت فى أثناء غلبة الصبغة السنية على إيران ، ولا يفوق تعصبهم للسامانيين إلا تعصبهم للصفويين الذين جعلوا المذهب الشيعى مذهبا رسميا لإيران .

ويستطيع الدارس للحضارة الإيرانية أن يجد تشابها كبيرا بين مظاهر حضارة إيران القديمة وبين كثير من مظاهر حضارتها فى الدولة السامانية وإن كانت الحضارة فى هذه الدولة تتميز بوجود العناصر الإسلامية فيها ، وهى العناصر التى ظهرت نتيجة للفتح الإسلامى لإيران ، وغلبة الصبغة السنية على مظاهر النشاط البشرى فيها .

والواقع أن الحضارتين الإسلامية والإيرانية تفاعلتا تفاعلا قويا فى ذلك العصر ، فظهرت عناصر كل منهما فى إيران والعراق على السواء ، وكانت صبغة الدين واضحة فيهما كل الوضوح .

ولكن الحروب التى قام بها السامانيون فى بلاد التركستان جعلتهم

يأسرون كثيرا من الأتراك ، ويستخدمونهم فى خدمة القواد والوزراء وكبار رجال الدولة ، ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن وصلوا إلى مرتبة الحجاب والمربين للأمراء وقواد الجيش ، ومناصب الدولة العالية ، فظهر نفوذهم ، وأخذوا يتدخلون فى الحكم ، ثم صارت لهم الكلمة العليا فى النهاية وتمكنوا من إسقاط الدولة السامانية ، فبدأ عصر جديد هو عصر نفوذ العناصر التركية فى إيران الإسلامية وأخذ الأتراك يكوّنون دولا قوية كان لها شأن فى التاريخ الإسلامى بعامة وفى تاريخ إيران بخاصة ، وهو عصر بلغت فيه الصبغة السنية أزهى درجاتها فى إيران مما سنتبينه فى الفصل التالى .

وبالله التوفيق



الفصل الرابع

وضوح الصبغة السنية فى إيران الإسلامية

كان ظهور العنصر التركى فى العالم الإسلامى السنى عاملا مساعدا على تقوية الصبغة السنية على جميع مظاهر النشاط البشرى فى جميع الأقطار الخاضعة للنفوذ الروحى للخليفة العباسى السنى ، لأن الأتراك كانت تغلب عليهم صفة البداوة فإذا آمنوا بشىء تعصبوا له تعصبا شديدا ، ودافعوا عنه بقوة ، ولم يقبلوا غيره بديلا .

وقد أخذ الخلفاء العباسيون يستعينون بالأتراك منذ عهد الخليفة العباسى المعتصم بن المأمون من عام ٢١٨ إلى عام ٢٢٧ هـ لأن المعتصم كانت أمه تركية فاطمأن إلى الأتراك ، واتخذ جنودا منهم للحراسة ، ثم زادت الاستعانة بالأتراك طوال القرن الثالث الهجرى وفى القرون التالية لهذا القرن ، حتى طغى نفوذهم ، وصاروا يوجهون سير الأحداث فى العالم الإسلامى السنى .

وكان الأتراك معروفين بالشجاعة والوسامة ، فاشتغلوا حراسا للحكام وجنودا فى الجيش وحجابا فى القصور كما اتخذت التركيات مغنيات وعازفات وكن الجوارى فى قصور الحكام والعظماء لِمَا اشتهرن به

من جمال وجاذبية ، وأصبحت الكثيرات منهن زوجات للخلفاء والسلاطين وقواد الجيش وحكام الأقاليم وعلية القوم ، بل إن بعض الخلفاء والسلاطين كانت أمهاتهم من الجوارى التركيات مما زاد فى قوة الأتراك ونفوذهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى السنى الذى يدين بالطاعة والولاء للسلطان الروحى للخليفة العباسى فى بغداد .

وقد اتخذ السامانيون من الأتراك جنودا ـــ كما ذكرنا ـــ ثم ارتفع شأنهم فى الجيش حتى صاروا ضباطا وقوادا لهم كلمة مسموعة ونفوذ ظاهر ، ثم دفعتهم طبيعتهم البشرية إلى التطلع إلى تولى الحكم ، بتكوين الدول ليصيروا سلاطين ، يكتب اسمهم فى سجل التاريخ .

وبدأت الدول التركية تظهر فى إيران المسلمة السنية منذ القرن الرابع الهجرى ، وكانت الدولة الغزنوية[1] هى أول دولة تركية قوية مشهورة ظهرت فى إيران فى القرن الرابع الهجرى .

وكان البتكين ـــ أول حكام الغزنويين ـــ عبدا تركيا من مماليك السامانيين الذين التحقوا بجيشهم ، ثم استطاع أن يصير من قوادهم ، وأن يصبح حاكما على خراسان فى عام ٣٤٩ هـ ، ثم تمكن من بسط نفوذه على إقليم أفغانستان فى عام ٣٥١ هـ حيث أعلن تأسيس دولة تركية جديدة سميت الدولة الغزنوية .

وقد بلغت هذه الدولة أقصى قوتها ونفوذها فى عهد محمود

---

(١) اتخذت هذه الدولة مدينة غزنة ـــ فى أفغانستان حاليا ـــ عاصمة لها فنسبت إليها على الطريقة الفارسية واشتهرت بهذه النسبة أما النسبة بالطريقة العربية فهى « غَزْنيَّة » لا « غزنوية » .

الغزنوى ثالث حكام هذه الدولة ، فقد أطلق محمود على نفسه لقب السلطان وتمكن من بسط حكم الغزنويين على إقليم أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان ، فلم يعد خارج نفوذ الغزنويين من أقالم إيران الأصلية غير إقليمى كرمان وفارس . واستطاع السلطان محمود الغزنوى بذلك أن يسقط كلا من الدولتين السامانية والزيارية[1] وأن يستولى على كثير من ممتلكات البويهيين[2] فى الهضبة الإيرانية ، وأن يدفعهم إلى غربى هذه الهضبة .

---

(١) أسس هذه الدولة مردآويج بن زيار ، وهو من الديالمة ، فقد كان من الحكام المحليين ــ فى القرن الثالث الهجرى ــ ثم تمكن من السيطرة على ساحل بحر قزوين فى منطقة تعرف باسم بلاد الديلم وباسم طبرستان ، وأسس فيها الدولة الزيارية التى ظلت تحكم فى هذه المنطقة إلى أن أسقطها محمود الغزنوى فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

(٢) قامت دولة البويهيين فى جزء من بلاد الديلم ، فقد أسسها على بن بويه الذى كان حاكما محليا من قبل مرداويج بن زيار ، وكان ــ كذلك من الديالمة ، ولكنه تمكن بمساعدة أخويه الحسن وأحمد من تأسيس دولة للبويهيين ، وبسط نفوذ هذه الدولة على وسط إيران وغربها ، بل تمكن أحمد بن بويه من دخول بغداد ــ فى عام ٣٣٤ هـ ــ فسيطر البويهيون بذلك على مقر الخلافة العباسية السنية ، وكان البويهيون من الشيعة الإسماعيلية ، ولكنهم لم يسقطوا الخلافة العباسية خوفا من ثورة المسلمين فى أنحاء العالم السنى المترامى الأطراف ، فأبقوا على الخلفاء العباسيين فى بغداد ، فكان لهؤلاء الخلفاء سيطرة روحية اسمية ، بينما كان البويهيون يسيطرون سيطرة فعلية على مقاليد الأمور فى بغداد . وبلغت الدولة البويهية أقصى قوتها ونفوذها فى عهد عضد الدولة الذى حكم من عام ٣٣٨ هـ إلى عام ٣٧٢ هـ واتخذ كل من مدينتى الرى وأصفهان عاصمة له ، ثم أخذت فى الضعف والانهيار بعد سيطرة العنصر التركى على الأراضى الإيرانية ، فانتزع الغزنويون فى عهد السلطان محمود جزءا كبيرا من أراضى البويهيين ، ثم انتزع السلاجقة فى عهد السلطان طغرل الأول الجزء الباقى من أراضى البويهيين وأسقط دولتهم فى عام ٤٤٧ هـ .

وقد أخذ تاريخ إيران ـــ فى ظل الإسلام ـــ يدخل مرحلة جديدة أكثر أهمية وأخلد أثرا . كما أخذت الصبغة السنية تزهو فى هذه البلاد بصورة واضحة ملموسة ، فاصطبغت جميع مظاهر النشاط البشرى فى إيران بالصبغة السنية الزاهية وكان الاتهام بالتشيع كافيا لإعراض السلطان عن كل من يتهم بهذه التهمة(١) .

وقد تمكن السلطان محمود الغزنوى من بسط سيطرة الغزنويين على إيران والهند حين قام بغزوات عديدة مكنته من السيطرة على القسم الشمالى من شبه القارة الهندية المترامية الأطراف ، وجعلته يظفر بمغانم كثيرة ، أسهبت كتب التاريخ فى وصف كثرتها وقيمتها

وكانت غزوات السلطان محمود الغزنوى هى أشهر الحروب التى قام بها ، وكانت غزوات متلاحقة استغرقت أكثر من عشرين عاما ، فبدأت فى عام ٣٩٢ هـ واستمرت إلى عام ٤١٦ هـ ، وكانت تتسم بطابع الجهاد فى سبيل الله ، رغبة فى نشر الإسلام فى بلاد الهند مما أعلى من

(١) يكفى أن نذكر مثلا يدل على صحة ما نقول ، ما حدث للشاعر الفارسى المعروف الفردوسى الطوسى ناظم الشاهنامه ، وشاعر السلطان محمود الغزنوى ، فقد أبلغ الواشون السلطان محمود أن الفردوسى شيعى رافضى فأعرض السلطان عنه وبدل أن يعطيه ستين ألف دينار مكافأة له على نظمه الشاهنامه أعطاه ستين ألف درهم ، فغضب الفردوسى وأخذ يهجو السلطان بعد أن كان من مادحيه ، لأن السلطان كان سنيا شديد التمسك بسنيته كغيره من حكام الأتراك .

وقد أدى ما فعله السلطان محمود بالفردوسى إلى كره الإيرانيين للغزنويين بعامة والسلطان محمود بخاصة فشوهوا تاريخ هذا السلطان برغم أنه من قواد المسلمين الشجعان الذين أبلوا بلاء حسنا فى نصرة الإسلام ونشره فى ربوع القارة الهندية والمساهمة فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية .

شأن محمود الغزنوى ، فذكر اسمه فى التاريخ على آنه فاتح الهند .

وكان لدخول بلاد الهند تحت راية المسلمين أثر واضح فى تاريخها وحضارتها منذ أواخر القرن الرابع الهجرى إلى يومنا هذا ، فقد ساهم المسلمون فى الهند فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية طوال العصور الإسلامية المتعاقبة منذ الفتح الإسلامى لهذه البلاد أى منذ ألف سنة من الزمان ، وهى مدة تشكل الجزء الأكبر من التاريخ الإسلامى .

والواقع أن السلطان محمود الغزنوى هو أشهر سلاطين الدول الغزنوية ، ومن أبطال المسلمين المشهورين لشجاعته وكثرة فتوحاته وانتصاراته ، وتشجيعه للعلماء والأدباء ، فقد كان بلاطه شاهدا قويا ودليلا واضحا على ازدهار الحضارة الإسلامية ذات الصبغة السنية ، لكثرة من اجتمعوا حوله من العلماء — فى مختلف العلوم والفنون — والشعراء والكتاب ، فقدمت له كتب كثيرة فى كل علم وفن ومدحه العديد من الشعراء والكتاب .

وكان من أشهر من اتصلوا به من العلماء أبو الريحان البيرونى ومن الشعراء الفردوسى الطوسى ناظم الشاهنامة[1] .

غير أن محمود الغزنوى لم يظفر بحب الإيرانيين ورضاهم عن أعماله لأنه كان سنيا متمسكا ، ولأنه حاول القضاء على كثير من اثار

---

(١) الشاهنامه منظومة فارسية فى ستين ألف بيت من الشعر الفارسى تضم سير ملوك الفرس وأبطالهم منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى لإيران ، وقد استغرق نظمها أكثر من عشرين عاما ، وتم نظمها فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

السامانيين الذين ينتسبون إلى الإيرانيين القدماء مما جعلهم يحيون الكثير من مظاهر حضارة إيران قبل الإسلام ، ولأنه لم يكرم الفردوسى الذى يظفر بحب الإيرانيين لأنه سجل تاريخهم قبل الإسلام فى منظومته الشاهنامه .

ولهذا كله تحامل الإيرانيون على السلطان محمود الغزنوى وحاولوا الغض من روعة أعماله بتشويه تاريخه بقولهم إنه غزا الهند طمعا فى الغنائم والأموال لا رغبة فى نشر الإسلام ورفع رايته فى شبه القارة الهندية ، وقلدهم المستشرقون وأعداء الإسلام والمسلمين فى الحط من قدر السلطان محمود الغزنوى وتشويه تاريخه .

وإذا كانت الحقيقة العلمية هى غاية الدارسين فينبغى أن نقرر أن السلطان محمود الغزنوى من أعظم حكام المسلمين وأبطالهم الذين أبلوا بلاء حسنا فى نصرة الإسلام ونشره فى الآفاق ، وساهموا فى بناء الحضارة الإسلامية بتشجيعه لبناتها من العلماء والأدباء ، كما أنه من الحكام الذين خدموا اللغة الفارسية وآدابها فقد ساعدت فتوحاته على نشر هذه اللغة فى بلاد الهند فأصبحت هذه البلاد منذ القرن الخامس الهجرى من بلاد الفارسية مما ساعد على ظهور لغة إسلامية جديدة فى بلاد الهند هي اللغة الأوردية ، وهى لغة باكستان إحدى دول المسلمين التى توجد الآن فى أجزاء من شبه القارة الهندية .

وقد شهد عصر محمود الغزنوى ظهور قوة تركية جديدة ــ هى قوة الأتراك السلاجقة ــ التى ظهرت فى بلاد ما وراء النهر[1] ، ثم

(١) كان ظهورهم فى هذه المنطقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى بعد عام ٣٨٠هـ .

انتقل السلاجقة فى أواخر عهد محمود الغزنوى إلى إقليم خراسان حيث صار لهم شأن فى هذه المنطقة حين تمكنوا بقيادة طغرل من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ابن السلطان محمود وسيطروا على إقليم خراسان ، فأعلن طغرل ـــ فى عام ٤٢٩ هـ ـــ نفسه سلطانا فى نيسابور ، كما أعلن قيام دولة جديدة فتية ، هى الدولة السلجوقية ، كانت الصبغة السنية شديدة الوضوح فيها ، لأن سلاطين السلاجقة ، كانوا شديدى التمسك بالمذهب السنى وكانوا يعدون أنفسهم جنود الخلافة العباسية المخلصين ، مما جعلهم يحرصون على بقاء الخلافة السنية وعلى الظفر برضاء الخليفة العباسى عن حكمهم .

وقد استطاع السلاجقة أن يبسطوا نفوذهم على إيران والعراق وبلاد الشام وجزء كبير من آسيا الصغرى مما مكنهم من التأثير فى تاريخ هذه المناطق وحضارتها تأثيرا مازال واضحا إلى يومنا هذا .

ومن الحق أن نقرر أن خروج الطوائف التركية من مواطنها الأصلية ـــ فى وسط آسيا ـــ وتسربها أحيانا ، واندفاعها أحيانا أخرى إلى غربى آسيا وشرقى أوربا ووسطها من الحركات العالمية التى شهدها التاريخ ، وهى حركة استمرت سبعة قرون من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) .

وكانت هذه الحركة نقطة تحول أو انطلاق حين اخترق الإسلام الحاجز الذى يقف بينهم وبين بلاد المسلمين ، فأسلموا وحسن

إسلامهم ، فأصبحت بلادهم دار الإسلام ، واخذوا يتسربون إلى ممالك المسلمين ، ويدخلون فى خدمة خلفاء المسلمين وملوكهم وأمرائهم وقوادهم ، ويمدون ممالك المسلمين بقوة جديدة ، ثم واتتهم الفرص ، فوثبوا على كراسى الملك وأنشأوا لهم دولا بلغ بعضها أقصى درجات الاتساع وكانت دولة السلاجقة من بين الدول التركية المسلمة السنية التى بلغت أقصى درجات القوة والعظمة والمجد والاتساع .

وهكذا رفع الإسلام من قدر الترك فأدخلهم نطاق التاريخ العالمى ، ومهدوا لأنفسهم فيه مكانا عَلِيًّا حين جعلوا الإسلام الراية التى التفوا حولها ، فأنعشوا قوة الإسلام والمذهب السنى فى ديار الإسلام ، ثم مضوا يركزونها على معالم الطريق الذى ساروا فيه فى البر والبحر حتى وسط أوربا

لقد كان السلاجقة من أهم قبائل الأتراك التى تحركت غربا إلى الأراضى الخاضعة لنفوذ دولة الخلافة العباسية السنية فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

وقد استغلوا أحوال البلاد التى نزلوها ، واصطنعوا أساليب الملك ، فبنوا دولة قوية فى خراسان وأعلنوا قيامها فى عام ٤٢٩ هـ ، واتخذ قائدهم طغرل لقب السلطان طغرل الأول منذ هذا العام ثم اعترف الخليفة العباسى القائم بأمر الله بقيام هذه الدولة فى عام ٤٣٢ هـ ، وجعلوا لهم هدفا بعيدا هو توحيد الرقعة الكبيرة من بلاد الإسلام التى سيطروا عليها تحت لواء السنّة والجماعة بزعامة الخليفة العباسى الروحية

باعتباره خليفة رسول الله ــ ﷺ ــ وإمام المسلمين .

وجعل السلاجقة مثلهم الأعلى الجهاد المقدس لنشر راية الإسلام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فساروا فى هذا الطريق ، وكللت جهودهم بالنجاح ، فتمكن طغرل الأول ــ الذى امتد عهده من عام ٤٢٩ هـ إلى عام ٤٥٥ هـ ــ من بسط سيطرتهم على إيران والعراق ، والهيمنة على دار الخلافة العباسية ، وإسقاط الدولة البويهية ثم واصل السلاجقة مسيرتهم المظفرة فى عهد السلطان ألب أرسلان خليفة طغرل واجتازوا الثغور والعواصم وانتصروا على الروم فى موقعة ملازكرد ــ فى عام ٤٦٣ هـ ــ وانتزعوا بهذا النصر المبين ــ أرض الأناضول من الروم ، وحولوها إلى أرض تركية إسلامية سنية فمهدوا ــ بذلك ــ السبيل أمام الترك العثمانيين من بعدهم ، فتمكنوا من إسقاط دولة الروم والاندفاع فى البحار والأراضى الأوربية حتى بلغوا فينا عاصمة النمسا فى وسط أوربا .

لقد كانت موقعة ملازكرد من المواقع الحاسمة فى التاريخ الإسلامى بعامة ، وفى تاريخ غربى آسيا بخاصة ، لأنها زعزعت أركان دولة الروم وقضت على نفوذهم فى أكثر أجزاء آسيا الصغرى بعد ذلك فكانت ــ لهذا ــ بعيدة الأثر فى مختلف نواحى الحضارة فى هذه المنطقة ، فقد أدى أفول نجم الروم من أفق منطقة آسيا الصغرى إلى انكماش نفوذهم حين أخذت أجزاء من بلاد الروم تَفْلِتُ من أيديهم وتنضم إلى العالم الإسلامى ، مما أدى إلى حلول الحضارة الإسلامية محل الحضارة اليونانية النصرانية التى كانت صبغتها واضحة فى تلك البلاد وما

جاورها إلى حدود أذربيجان فلما فتح السلاجقة المسلمون هذه البلاد ، أشرقت شمس الإسلام عليها ، ودخل أهلها فى الإسلام أفواجا ، فدخلت الحضارة الإسلامية بعقائدها ونظمها وآدابها وجميع مظاهرها فى منطقة آسيا الصغرى ، وصارت هذه المنطقة من بلاد المسلمين ، وصار أهلها يتبعون مذهب أهل السنة الذى كان متبعا فى إيران حيث كان المسلمون يدينون بالطاعة والولاء للخليفة العباسى الذى كان مقره بغداد عاصمة دولة الخلافة .

كما أخذت اللغة الفارسية تنتشر فى منطقة آسيا الصغرى لأنها كانت لغة الجنود الذين فتحوا هذه البلاد ، وهى اللغة الإسلامية التى تلى العربية فى أهميتها ، ولقد مهّد انتشارها فى تلك المنطقة لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك ، وأدى هذا كله إلى ظهور مرحلة جديدة من مراحل تطور الحضارة الإسلامية على أيدى الأتراك العثمانيين :

وهكذا يسر انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ـــ فى عام ٤٦٣ هـ ـــ إحداث هذا التحول الكبير فى منطقة آسيا الصغرى ، ومازالت آثاره ملموسة إلى يومنا هذا ، مما جعل هذه الموقعة إحدى المواقع الحاسمة الموجهة فى التاريخ الإسلامى بعامة وفى تاريخ السلاجقة وغربى آسيا بخاصة .

وقد قامت الحروب الصليبية فى عام ٤٨٧ هـ بعد موقعة ملازكرد بربع قرن من الزمان ـــ تقريبا ـــ فكانت نوعا من الأخذ بالثأر من السلاجقة المسلمين المتمسكين بالمذهب السنى ، فقد تمكن الصليبيون

من الاستيلاء على بيت المقدس ـــ فى عام ٤٩٢ هـ ـــ بعد أقل من ثلاثين عاما من هزيمة الروم فى تلك الموقعة . واستطاع السلاجقة وأحفادهم فى بلاد الشام وقوادهم من الأكراد أن يساهموا فى قتال الصليبيين ، وتمكنوا ـــ فى النهاية ـــ من القضاء عليهم ، وطردهم من بلاد المسلمين ، وتقوية المعسكر السنى الذى يدين بالطاعة والولاء للخليفة العباسى فى بغداد مما كان له أثر بعيد فى حضارة كثير من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية مازال ملموسا إلى الوقت الحاضر .

وقد استطاع السلاجقة فى عهد ملكشاه بن ألب أرسلان ـــ من عام ٤٦٥ هـ إلى عام ٤٨٥ هـ ـــ أن يبسطوا نفوذهم على أكثر أجزاء آسيا الصغرى وبلاد الشام ، فأصبحت دولتهم تمتد من الهند شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر الأسود شمالا إلى الخليج جنوبا .

ولكن هذه الرقعة الواسعة من الأراضى الخاضعة لنفوذ السلاجقة تأبّت على الوحدة بعد مصرع نظام الملك وزير ملكشاه المشهور بكفاءته وسياسته الحكيمة ، ووفاة السلطان ملكشاه نفسه فى عام ٤٨٥ هـ[١] لأن عوامل التشتت صارت أقوى من عوامل الوحدة فتفشى النزاع حول العرش وحول الوزارة ، وانعدم الاستقرار فى تلك المنطقة الكبيرة من آسيا ، لأن تحرك القبائل والجماعات التركية كان مستمرا فيها ، مما ساعد على الانقسام والتشتت والضعف ، فعجز خلفاء

(١) قتل الوزير نظام الملك فى العاشر من رمضان من عام ٤٨٥هـ وتوفى السلطان ملكشاه فى الخامس عشر من شوال فى نفس العام فانهار ركنا دولة السلاجقة فى مدة وجيزة .

ملكشاه عن الاحتفاظ بتماسك الدولة ، وأخذت دولة السلاجقة تنقسم إلى دويلات شبه مستقلة .

وفى أواخر عصر سنجر (٥١١ ــ ٥٥٢ هـ) بدأت علامات الانهيار تظهر على دولة السلاجقة فقد منى سنجر بهزيمة ساحقة على يد قبيلة تركية مغولية تدعى الغز فى عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ووقع أسيرا ، وظل فى الأسر ثلاث سنوات ثم توفى فى عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) فانتهز سلاطين الدولة الخوارزمية[1] فرصة ماأصاب دولة السلاجقة من ضعف وتفكك ، وأخذوا يستولون على ممتلكات السلاجقة فى إيران ، وكانوا على وشك الوصول إلى بغداد فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) فى الوقت الذى ظهر فيه خطر المغول .

وقد تمكنت الدولة الخوارزمية من إسقاط دولة السلاجقة فى إيران والعراق فى عام ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بينما ظل حكم السلاجقة فى بلاد الشام وفى آسيا الصغرى بعد ذلك .

ويمتاز العصر السلجوقى فى إيران بأنه عصر ظهرت فيه الصبغة السنية فى جميع مظاهر الحضارة الإيرانية بحيث عُدّ الشيعة الإسماعيلية ــ من أتباع حسن الصباح ــ خارجين عن الإسلام ووصفوا بأبشع الصفات .

---

(١) الدولة الخوارزمية دولة تركية قامت فى منطقة خوارزم وكان حكامها يدينون بالطاعة والولاء للسلطان سنجر السلجوقى ، ولكنهم تمردوا عليه بعد ضعفه وهزيمته من الغز ، ثم استولوا على ممتلكاته فى إيران وماوراء النهر بعد موته فى عام ٥٥٢هـ .

ولقد كان العصر السلجوقى — إلى جانب أهميته من الناحية المذهبية — مهما من الناحية الحضارية بعامة ، فقد تمكن السلاجقة من الانتصار على الروم ونشر الإسلام فى منطقة آسيا الصغرى فغلبت الصبغة الإسلامية السنية على ألوان النشاط البشرى فى هذه المنطقة منذ عصر السلاجقة إلى يومنا هذا .

كما كان السلاجقة يعشقون الفنون الجميلة ، فازدهرت الفنون فى عصرهم ، وارتقت فنون النقش والتصوير والصنعة المعمارية ، لأن السلاجقة شجعوا المشتغلين بها ، فبقيت روائع الفن الإيرانى منذ عصر السلاجقة ، وأصبحت الآثار الباقية . منذ هذا العصر قليلة النظير فى تاريخ الفن الإيرانى .

وقد نقلت فتوحات السلاجقة خصائص الفن الإيرانى إلى سواحل البحر الأبيض وشمالى إفريقية فشوهدت آثار هذا الفن فى الفنون المصرية والسورية ، وهكذا بقى الفن الإيرانى حيا مقرونا بالعشق والابتكار فى داخل إيران وخارجها .

كما ارتقى فن الأدب فى عصر السلاجقة ، ونشرت فتوحاتهم اللغة الفارسية فى آسيا الصغرى فظهرت آثارها فى اللغة التركية بعد ذلك .

ويتضح مما ذكرنا عن السلاجقة أن عصرهم كان ذا أثر واضح فى تاريخ إيران وحضارتها بخاصة ، وفى تاريخ المسلمين وحضارتهم بعامة ، وأن الصبغة السنية كانت زاهية غالبة فى هذا العصر ، وأن غير أهل السنة كانوا يعدون ملاحدة خارجين عن نهج الإسلام الصحيح .

وقد ظلت الصبغة السنية غالبة على المسلمين فى إيران بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كما سيتضح فى الفصل التالى .. وبالله التوفيق .



الفصل الخامس

بقاء الصبغة السنية فى إيران بعد سقوط الخلافة العباسية

كان سقوط دولة السلاجقة فى إيران والعراق فى عام ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بداية النهاية بالنسبة للخلافة العباسية السنية فى بغداد ، فقد صادف سقوط السلاجقة ظهور المغول وبروز خطرهم على العالم الإسلامى السنى .

وكان المغول من القبائل التركية البدوية الوثنية المقيمة فى وسط آسيا فلما تولى « تموجين » ـــ الذى اتخذ لقب جنكيز خان ـــ قيادتهم فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) استطاع أن يوحد صفوفهم ، وأن يتحرك على رأس جيش كبير منهم ، وأن يتقدم ويكتسح البلاد جنوبا وشرقا ويستولى على الصين ثم يتجه شرقا إلى حدود الدولة الخوارزمية التى أسقطت دولة السلاجقة .

وكان وصول المغول إلى حدود الدولة الخوارزمية فى عام ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) نذير شر ، وبداية خطر داهم على إيران والعراق ، فقد تمكن جيش المغول ـــ بقيادة جنكيز خان ـــ من اجتياح الدولة الخوارزمية والاستيلاء على بخارى وسمرقند وبلخ ومرو ونيسابور ونهب هذه

المدن وإحراقها .

وقد رجع « جنكيز خان » إلى الشرق بعد أن تم للمغول الاستيلاء على أغلب أجزاء إيران ، وواصل المغول هجومهم على بلاد المسلمين بعد وفاة جنكيز خان فى عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) فقد قادهم خليفته جرماغون ، فتقدم المغول فى الأراضى الإيرانية ، وأتموا السيطرة على سائر ممتلكات الدولة الخوارزمية واستطاعوا الوصول إلى شمال غربى إيران والعراق ، فزاد خطرهم على الخلافة العباسية السنية التى كان مقرها بغداد .

وفى عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) تمكن هولاكو ــ الذى قاد المغول بعد جرماغون ــ من تحطيم قلاع الإسماعيلية ، ودحر قواتهم فى إيران ، ثم تقدم نحو بغداد فى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وحاصرها شهرا إلى أن تمكن من اكتساحها وتخريبها. وقتل الخليفة ــ المعتصم بالله ــ آخر الخلفاء العباسيين السنيين ، وقضى على أفراد أسرته ، فأصبح المغول يسيطرون على إيران والعراق سيطرة تامة .

وحاول « هولاكو » أن يبسط سيطرة المغول على بلاد الشام ومصر ولكنه هزم هزيمة نكراء على أيدى المصريين عند عين جالوت ــ فى فلسطين ــ فى عام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، وكانت هذه الهزيمة أول كبح لجماح القوات المغولية ، فارتدت إلى الشمال الغربى من إيران وعسكرت عند مراغه .

واستقر المغول . بعد ذلك ــ فى إيران ، واتخذوا مدينة السلطانية

عاصمة لدولتهم فى إيران . كما اتخذ هولاكو لقب ايلخان ، وتلقب خلفاؤه بهذا اللقب ، فأصبحت دولة المغول تسمى دولة الايلخانيين فى إيران .

وبرغم وثنية المغول فإن الصبغة الإسلامية السنية ظلت سائدة واضحة فى إيران بعد سقوط دولة الخلافة العباسية السنية ، بل إن قوة الحضارة الإسلامية المستقرة فى إيران لم تلبث أن أثرت فيهم فبدأوا يغيرون من عاداتهم وأخلاقهم ، ويلبسون أنماطا جديدة من الملابس ويؤمنون بمعتقدات دينية تخالف ما اعتادوا عليه فى حياتهم القبلية الوثنية .

ووجد المغول ــ بعد استقرارهم فى إيران ــ أنهم محتاجون إلى موظفين من الإيرانيين فى المناصب الإدارية المختلفة مما يسر للإيرانيين الوصول إلى المناصب الإدارية الرفيعة فى الدولة المغولية ، فظلت الصبغة الإسلامية السنية واضحة فى مظاهر النشاط البشرى فى إيران فى العصر المغولى ، فى عصر هولاكو وابنه وخليفته آباقاخان الذى فشلت محاولاته لمعاودة غزو بلاد الشام أو تضييق الخناق على المماليك فى مصر .

وخلف تكودار أخاه آباقاخان فى قيادة المغول فى إيران فاعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد وكان ذلك فى عام ٦٨٠ هـ (١١٨١ م) أى بعد مرور أقل من ربع قرن على سقوط دولة الخلافة العباسية السنية ، وصار حكام المغول مسلمين ــ منذ ذلك الوقت ــ فأصبحوا رعاة للحضارة الإسلامية السنية ، وأخذ صرح هذه الحضارة يواصل ارتفاعه فى العصر المغولى ، فنشطت العلوم والفنون وكثر الإنتاج الأدبى وألفت

الموسوعات التاريخية كما ألفت كتب قيمة فى الطب وعلم النبات وعلم الفلك والعلوم الطبيعية .

وهكذا ظلت الصبغة السنية غالبة واضحة فى إيران بعد سقوط دولة الخلافة العباسية السنية على أيدى المغول الذين غَلَبوا عسكريا ولكنهم غُلبوا حضاريا ، وتركوا وثنيتهم ، ودخلوا فى الإسلام دين الله الحق ، وصاروا من جنوده المدافعين عنه والحامين لحضارة المسلمين .

وخلف التيموريون المغولَ فى السيطرة على إيران ، وكانوا من الأتراك المسلمين الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بقيادة تيمور وتمكنوا من الاستيلاء على أقاليم خراسان ومازندران وسجستان ، ثم لم يلبثوا أن بسطوا سيطرتهم على جميع أجزاء إيران ، وهاجموا العراق والشام وتمكنوا من الاستيلاء على حلب .

وقد اتخذ تيمور مدينة سمرقند عاصمة لدولته الفتية وتمكن من السيطرة على جزء من التركستان وجزء من الهند .

وبقيت الصبغة السنية ظاهرة غالبة فى إيران فى ظل الدولة التيمورية التى شجعت العلوم والفنون وزادت صرح الحضارة الإسلامية الراقية ارتفاعا وشهرة .

غير أن الدولة التيمورية أخذت تفقد تماسكها بعد وفاة مؤسسها تيمور — فى عام ٨٠٧ هـ — فقد كثرت المنازعات والحروب بين أبنائه

وأحفاده ، فاستفادت القبائل التركية المقيمة فى القسم الشمالى الغربى من إيران من هذا التفكك فى البيت التيمورى ، وأخذت تقتطع أجزاء من ممتلكات الدولة التيمورية ، فتمكنت قبائل « القره قيونلو »[1] من الاستيلاء على إقليم أذربيجان فى عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) واتسع نفوذ هذه القبائل حتى بلغ بغداد .

كما تمكنت قبائل « آلاق قيونلو »[2] من هزيمة « القره قيونلو » والاستيلاء على الإقليم الغربى من إيران ، بينما كان أبناء تيمور يحكمون الإقليم الشرقى من إيران ، وظلوا يحكمون هذا الإقليم حتى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) .

وكانت الصبغة السنية هى الغالبة الواضحة فى إيران ـــ برغم سقوط الخلافة العباسية ـــ فظلت ظاهرة فى أثناء غلبة المغول والتيموريين والقره قيونلو وآلاق قيونلو أى طوال قرنين ونصف قرن من الزمان بعد سقوط دولة الخلافة .

وواصلت مظاهر الحضارة الإسلامية السنية ازدهارها مصطبغة بهذه الصبغة ، فلم تتغير صبغتها إلا بعد قيام الدولة الصفوية الشيعية فى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) ، وإعلانها المذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا فى إيران فى عام ٩٠٧ هـ (١٥٠١ م) ، فاتخذ تاريخ إيران وحضارتها

---

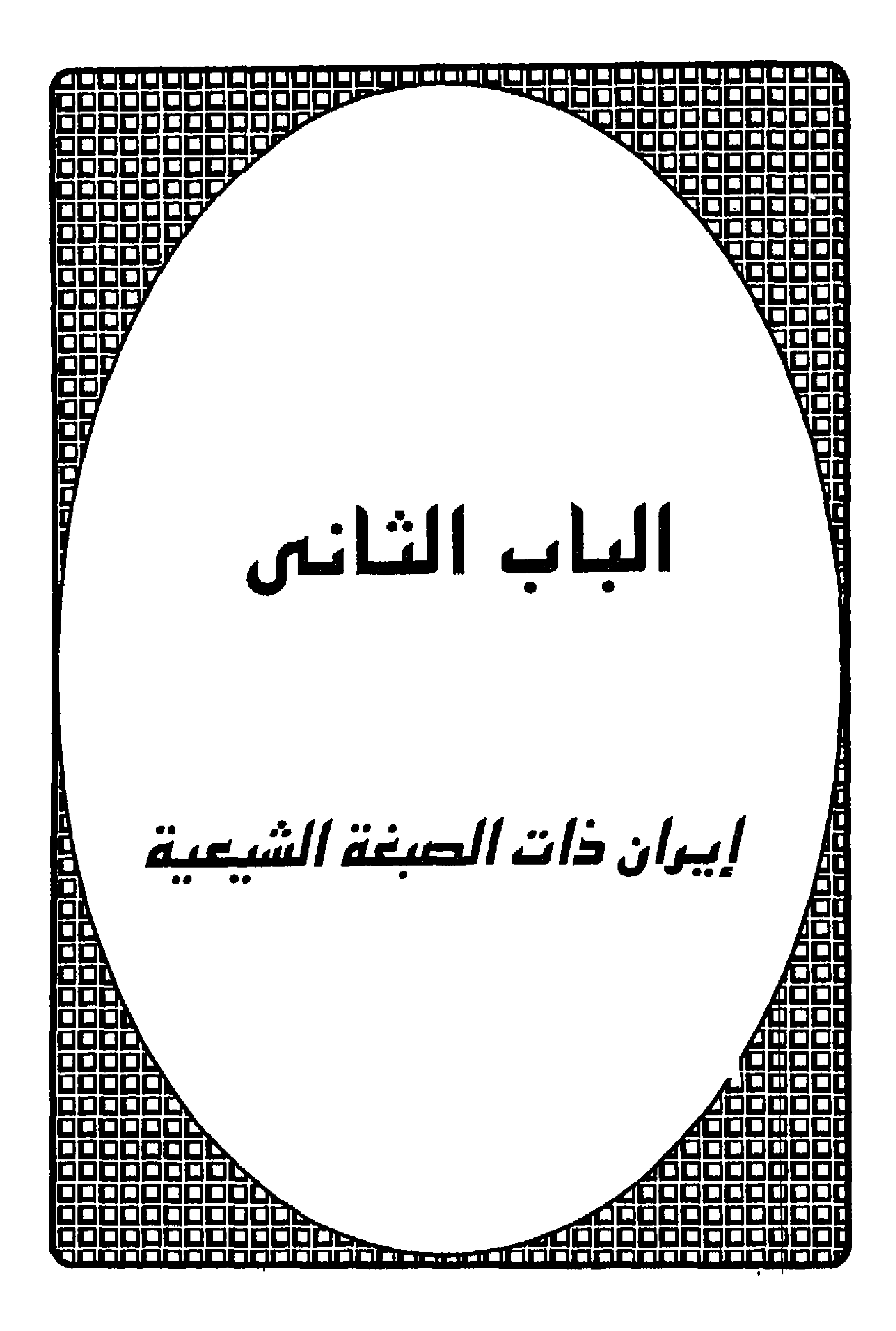
(١) « القره سيونلو » معناها « أصحاب الخراف السوداء » أى القبائل التى ترعى خرافا لونها أسود .

(٢) « الاق قيونلو » معناها « أصحاب الخراف البيضاء » أى الذين يرعون خرافا لونها أبيض .

الإسلامية اتجاها جديدا واصطبغ بصبغة جديدة منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا مما سنتبينه فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد .





الباب الثانى

إيران ذات الصبغة الشيعية

الباب الثانى
إيران ذات الصبغة الشيعية

تمهيد :

كان أكثر الطوائف التركية التى ظهرت في إيران منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من أهل السنة الذين يدينون بالطاعة والولاء للخليفة العباسى فى بغداد مادام فى العالم الإسلامى خلافة سنية .

وقد استطاعت الطوائف التركية المختلفة أن تقيم دولا كالخاثيين والغزنويين والسلاجقة والخوارزميين وكان حكام هذه الدول يحرصون على الحصول على منشور التولية من الخليفة العباسى إمام أهل السنة والجماعة وخليفة رسول الله ﷺ .

فلما دالت دولة الخلافة العباسية ، ظلت الصبغة السنية غالبة على مظاهر النشاط البشرى فى إيران الإسلامية قرنين ونصف قرن من الزمان بعد سقوط الدولة العباسية ، راعية المذهب السنى .

وهكذا يستطيع الدارس لحضارة إيران فى ظل الإسلام أن يتبين غلبة الصبغة السنية عليها منذ الفتح الإسلامي لإيران إلى أوائل القرن

العاشر الهجرى ، سواء قبل غلبة الطوائف التركية عليها أو بعد غلبة هذه الطوائف حتى فى عصر المغول الذين أسقطوا الخلافة العباسية السنية .

غير أن بعض القبائل التركية الساكنة فى منطقة أذربيجان بعد سقوط الخلافة العباسية اعتنقت المذهب الشيعى الإمامى(١) مثل قبائل القزلباشية ،(٢) وجنحت إلى التصوف وكانت تتبع فرقة صوفية تسمى الفرقة الصفوية نسبة إلى مؤسسها صفى الدين الأردبيلى ،(٣) وكان إسماعيل الصفوى(٤) أحد أحفاد صفى الدين يرأس هذه الفرقة ، فكانت قبائل القزلباشية تابعة له ، وتحت إمرته . وقد استطاع إسماعيل الصفوى أن ينتصر على آلاق قيونلو ويدخل مدينة تبريز(٥) ــ فى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) ــ ويعلن قيام دولة جديدة سميت الدولة الصفوية ــ نسبة إلى جده الأكبر صفى الدين ، فكانت هذه الدولة

(١) المذهب الشيعى الإمامى أو الإثنا عشرى أو الجعفرى هو المذهب القائل بعصمة الإمام الشيعى وبأن الأئمة اثنا عشر إماما أولهم على بن أبى طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكرى وهو الإمام الغائب أو المهدى المنتظر عند الشيعة الإمامية ، ويسمى هذا المذهب الجعفرى ــ كذلك ــ نسبة إلى جعفر الصادق الإمام السادس عندهم ، وكان معاصراً لأبى حنيفة فكتب الفقه الإسلامى من وجهة نظر الشيعة ، وسمى مذهبه « المذهب الجعفرى » وهو المذهب الرسمى فى إيران منذ قيام الدولة الصفوية إلى يومنا هذا أى طوال خمسة قرون حتى الآن .

(٢) القزلباشية أى الذين يلبسون قلنسوات لونها أحمر .

(٣) عاش صفى الدين الأردبيلى فى المدة ما بين ٦٥٠ هـ و ٧٣٥ هـ .

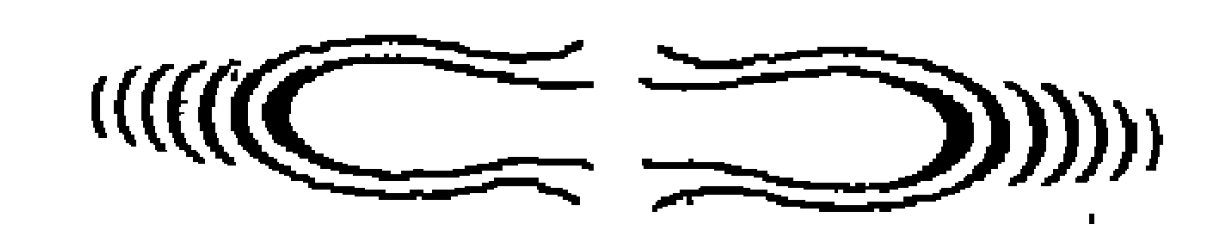
(٤) عاش إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية فى المدة ما بين ٨٩٢ هـ و ٩٣٠ هـ واتخذ لقب « الشاه » أى « الملك » وقد أصبح هذا اللقب يطلق على حكام إيران منذ ذلك الوقت إلى قيام الثورة الإسلامية بزعامة آية الله الخمينى فى عام ١٩٧٩ م .

(٥) مدينة تبريز هى عاصمة إقليم آذربيجان قديما وحديثا .

أول دولة شيعية إمامية تقوم بصفة رسمية ، وتبسط نفوذها على سائر الأراضى الإيرانية .

ويعد عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) بداية حقيقية لقيام دولة الصفويين الشيعية ، فقد جلس إسماعيل الصفوى على العرش فى مدينة تبريز واتخذ لقب الشاه أى الملك ، كما اتخذ هذه المدينة عاصمة لدولة الصفويين الفتية .

ولم يلبث الشاه إسماعيل الصفوى أن أعلن المذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا للدولة الصفوية فى عام ٩٠٧ هـ (١٥٠١ م) ، فأخذت إيران منذ هذا العام تصطبغ بالصبغة الشيعية ، وأخذت هذه الصبغة تنتشر في سائر الأقاليم الإيرانية حتى صارت ظاهرة غالبة طاغية واضحة فى جميع مظاهر النشاط البشرى فى إيران طوال العصر الصفوى والعصور التالية له إلى يومنا هذا ، مما ترتب عليه تحول جذرى فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية سنتبينه فى الفصول التالية بعون الله تعالى .



الفصل الأول
تحول إيران من التسنن إلى التشيع

كان قيام الدولة الصفوية الشيعية فى إيران فى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) وإعلانها المذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا لإيران فى عام ٩٠٧ هـ (١٥٠١ م) بداية تحول شامل فى تاريخ إيران ومظاهر حضارتها المختلفة ، إذ تحولت إيران من التسنن إلى التشيع ، وهى تستظل بظل الإسلام .

لقد ظلت إيران مايقرب من تسعة قرون من الزمان تتبع مذهب أهل السنة والجماعة حتى بعد سقوط الدولة العباسية آخر دول الخلافة السنية ، فكانت الصبغة السنية ظاهرة فيها ، واضحة فى جميع ألوان النشاط البشرى لأهلها ، بحيث يستطيع الدارس لتراث إيران المسلمة فى خلال القرون الهجرية التسعة الأولى — أن يرى الصبغة السنية واضحة فى ألوان هذا التراث المختلفة ، مما مكن إيران من المساهمة فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية بواسطة علمائها فى مختلف العلوم والفنون ، من أمثال البخارى ومسلم وسيبويه والخليل بن أحمد والطبرى والبيرونى وابن سينا والغزالى والفارابى والفخر الرازى وغيرهم يعدون من مفاخر

المسلمين جميعا ، لأن الإسلام كان هو الشعار والدثار فى سائر الأمصار الإسلامية المصطبغة بالصبغة السنية .

غير أن مسار النشاط البشرى فى إيران تغير تغيرا جذريا شاملا فى النواحى السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعلمية والفنية بعد قيام الدولة الصفوية ، لأن إعلان الصفويين للمذهب الشيعى الإمامى مذهبا رسميا لإيران جعل النشاط البشرى فيها يصطبغ بالصبغة الشيعية ويوجه الإيرانيين المسلمين إلى وجهة مغايرة لوجهة إخوانهم المسلمين فى الأقطار الإسلامية الأخرى التى كان أهلها يتبعون المذهب السنى ويصطبغ نشاطهم البشرى بالصبغة السنية .

وهكذا أدى قيام الدولة الصفوية إلى انقسام العالم الإسلامى إلى معسكرين ، معسكر سنى يتزعمه العثمانيون الذين كانوا فى أوج قوتهم فى ذلك الوقت . بقيادة السلطان سليم الأول — كما كانوا من القوى العظمى فى العالم كله ، ومعسكر شيعى يتزعمه الصفويون بقيادة الشاه إسماعيل الأول مؤسس الدولة الصفوية ، ورافع لواء المذهب الشيعى الإمامى فى إيران لأول مرة فى تاريخها منذ دخولها تحت راية الإسلام .

وأخذت حدة الخلافات المذهبية تتزايد بين المعسكرين السنى والشيعى — منذ ذلك الوقت — مما أثر فى تماسك العالم الإسلامى ، ومزق شمله ، وأضعف قوته فى النهاية ، ويسر للاستعمار الغربى سبيل السيطرة على كثير من الدول الإسلامية والتدخل فى شئونها ، وساهم فى إيجاد كثير من المشاكل التى مازال بعضها قائما حتى يومنا هذا ،

ويعرف بمشاكل الشرق الأوسط .

لقد كان اصطباغ إيران بالصبغة الشيعية ـــ بعد قيام الدولة الصفوية ـــ سببا فى معاداة المعسكر الشيعى للمعسكر السنى ، فقد عادى الصفويون العثمانيين ، وبادل العثمانيون الصفويين عداء بعداء وتعصبا بتعصب فاشتعلت نيران الحروب بين الطرفين ، وظلت هذه النيران مشتعلة أكثر من قرنين من الزمان مما أضعف المعسكرين معا ومكّن الدول الغربية المستعمرة من السيطرة على كثير من بلاد المسلمين ، والتأثير على سير الحياة فيها .

ولهذا كان اصطباغ إيران بالصبغة الشيعية منذ قيام الدولة الصفوية نقطة تحول فى تاريخ إيران وحضارتها بخاصة وفى تاريخ العالم الإسلامى وحضارته بعامة ، ومازال أثر هذا التحول ظاهرا ملموسا فى العالم الإسلامى إلى يومنا هذا .

إن القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى هو القرن الذى اصطبغت فيه إيران بالصبغة الشيعية ، وتحولت من التسنن إلى التشيع ، فكان تشيعها عاملا موجها فى سياسة المعسكرين الشيعى والسنى على السواء .

وكانت الدولة العثمانية ـــ حينذاك ـــ فى أوج قوتها فتمكنت من بسط نفوذها على بلاد البلقان ، فخضع لها اليونانيون والرومانيون والبلغار والصقالبة والألبانيون وتوغلت جيوشها بقيادة السلطان سليم الأول فى

وسط أوروبا ، فسيطرت على المجر ودخلت أراضى النمسا ، وطرقت أبواب عاصمتها فينا ، ولكنها توقفت عندها ولم تستطع الاستيلاء عليها .

فلما قامت الدولة الصفوية الشيعية فى إيران رأى العثمانيون فى قيامها خطرا يهدد دولتهم من الشرق ، ونظروا إلى هذا الخطر نظرة جدية فصمموا على القضاء عليه قبل القيام بأى عمل آخر ، وهكذا تحولت وجهة العثمانيين من الغرب إلى الشرق ، وارتدوا بأبصارهم إلى آسيا بعد أن كانوا يتطلعون بها إلى أوروبا الوسطى .

وكان إسماعيل الصفوى ـــ بعد قيام الدولة الصفوية فى أذربيجان ـــ قد واصل الزحف على أقاليم إيران المختلفة فى الوسط والجنوب والشرق وتمكن فى خلال إثنى عشر عاما من السيطرة على سائر أنحاء إيران ، وغير مذهب الإيرانيين المسلمين من المذهب السنى إلى المذهب الشيعى بالإقناع تارة ، وبالضغط والإكراه تارة أخرى ، وبعد أن استتب للشيعة الأمر فى إيران ، بدأوا يفكرون فى غزو العراق للسيطرة على الأماكن الشيعية المقدسة فى هذه البلاد حيث توجد قبور عدد من أئمة الشيعة مثل على بن أبى طالب وابنه الحسين وموسى الكاظم ـــ رضى الله عنهم ـــ مما زاد من خشية العثمانين منهم ، لأن استيلاءهم على العراق يهدد الدولة العثمانية السنية من الشرق ومن الجنوب .

وهكذا نظر العثمانيون إلى الصفويين نظرة عدائية ، وبادل الصفويون العثمانيين نفس النظرة فعدوهم خطرا جسيما يهدد الشيعة ودولتهم

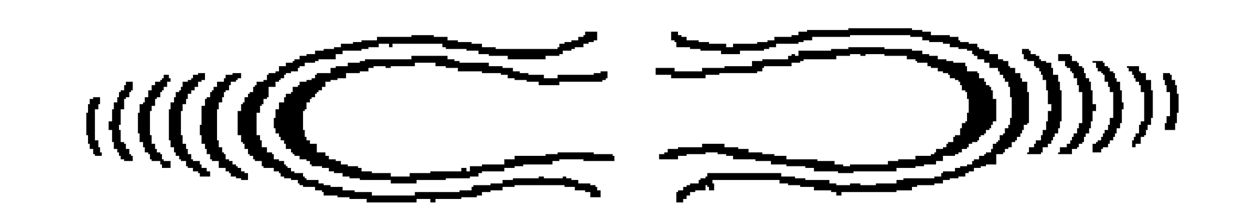
الفتية ، كما عدوا قتالهم جهادا فى سبيل الله ، وطريقا إلى الجنة ، وعدوا سفك دمائهم من الأعمال التى يثابون عليها ، ويتقربون بها إلى الله ، فأصبح اشتعال نيران الحرب بين المعسكر الشيعى بقيادة الصفويين والمعسكر السنى بقيادة العثمانيين أمر لا مفر منه .

وبدأت الحروب بين الشيعة والسنة فى عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) حين اشتبك الطرفان فى معركة عنيفة بالقرب من « جالداران » فى ديار بكر ، ومكان المعركة يدل على أن كلا من الطرفين قد تحرك من بلاده لغزو بلاد الطرف الآخر ، ولهذا تقابلا فى منطقة وسط بين إيران وتركيا ، مما يؤكد عزم كل منهما على قتال الآخر .

وقد انتهت معركة « جالداران » بانتصار السلطان سليم الأول على الشاه إسماعيل الأول انتصارا ساحقا أدى إلى تمزيق جيشه وتفريق جنده وهربه إلى تبريز عاصمة ملكه ، فغنم سليم الأول مغانم كثيرة ، وواصل الزحف حتى دخل تبريز عاصمة الصفويين بينما هرب إسماعيل الأول إلى وسط إيران .

وكان من المتوقع أن تؤدى هزيمة الصفويين النكراء فى موقعة « جالداران » إلى سقوط دولتهم وزوال الصبغة الشيعية من إيران وعودتها إلى العالم السنى ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق للعثمانيين لأنهم دخلوا عاصمة الصفويين فى فصل الخريف ، وهو فصل انتشار مرض الملاريا فى منطقة أذربيجان ، وهو من الأمراض الخطيرة فى هذه البلاد ، وقد أصيب عدد كبير من جنود العثمانيين بهذا المرض ، ثم حل فصل

الشتاء ـــ بعد ذلك ـــ على سليم الأول وجنوده ، وهو شديد البرودة فى هذه المنطقة ـــ كذلك ـــ فلم يطق العثمانيون الإقامة ، وآثروا الانسحاب من الأراضى الإيرانية ، فنجت الدولة الصفوية من السقوط وبقيت الصبغة الشيعية غالبة على الإيرانيين توجه نشاطهم البشرى ، كما بقيت العداوة بين المعسكرين السنى والشيعى ، وأخذت تزداد حدة بعد ذلك ، وظهرت آثارها فى العالم الإسلامى مما سنوضحه فى الفصول التالية بعون الله وتوفيقه .



الفصل الثانى
أثر الصبغة الشيعية فى الناحية السياسية

كان لغلبة الصبغة الشيعية على إيران ـــ منذ العصر الصفوى ـــ أثر واضح فى سياسة إيران تجاه العالم الإسلامى السنى من ناحية والعالم الغربى النصرانى من ناحية أخرى ، فقد نظر الشيعة فى إيران إلى أهل السنة ـــ بزعامة العثمانيين ـــ على أنهم أشد خطرا عليهم من الدول الغربية النصرانية ، فجاهروا العثمانيين السنيين بالعداء ، بينما أظهروا الود للدول الأوروبية النصرانية ، وللنصارى من الإيرانيين ، وقامت سياسة الدولة الصفوية على هذا الأساس طوال مدة حكمهم التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان من عام ٩٠٦ هـ ـــ إلى عام ١١٤٨ هـ .

وقد استطاع الشاه إسماعيل الأول ـــ مؤسس الدولة الصفوية ، وأول ملوكها ـــ أن يقيم دولة فى إيران على أساس قومى مذهبى ، وكان جده الأكبر الشيخ صفى الدين الأردبيلى من شيوخ الصوفية ، فكان شيخا لجماعة من الدراويش يشكلون فرقة صوفية ، سميت بالفرقة الصفوية ، فاكتسب إسماعيل من بيئته الدينية احتراما بين القبائل التركية الساكنة فى إقليم أذربيجان ، وتمكن بمساعدتهم من دخول تبريز ـــ فى

عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) — وإقامة دولة للشيعة فى إيران وإعلان مذهب الشيعة الإمامية مذهبا رسميا فى هذه البلاد لأول مرة فى تاريخها الإسلامى ، فاستطاع بذلك فرض التشيع على المسلمين فى إيران ونشره فى سائر أرجائها ، وصبغ النشاط البشرى فيها بالصبغة الشيعية .

وأدى قيام الدولة الصفوية الشيعية فى إيران إلى فصل أهل السنة فى وسط آسيا وأفغانستان والهند عن أهل السنة فى تركيا والعراق ومصر والدول الإسلامية الأخرى الواقعة إلى الغرب من إيران ، مما زاد العداوة بين المعسكرين السنى والشيعى .

وأخذت الخلافات المذهبية منذ أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) توجه سياسة كل من الصفويين الشيعة والعثمانيين السنيين وتشعل الحروب بين الطرفين ، ولم يكن انتصار العثمانيين فى موقعة « جالداران » فى عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) حاسما ، فظلت العداوة مشتعلة ، فتوالت الحروب بعد ذلك ، وتمكن السلطان سليم الأول العثماني من محاصرة الدولة الصفوية الشيعية بعد أن استولى على العراق ثم سيطر على الشام ومصر فى عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ثم غزا شمال إفريقية ، وأعاد الخلافة السنية فصار خليفة على المسلمين وأميرا للمؤمنين ، وأصبح سلاطين العثمانيين منذ عصره هم ممثلو الخلافة الإسلامية السنية الذين يدين أهل السنة لهم بالولاء إلى أن أسقط كمال أتاتورك هذه الخلافة منذ أكثر من ستين عاما .

وأدت إعادة الخلافة الإسلامية السنية وإسنادها إلى السلطان

العثمانى فى تركيا إلى زيادة اشتعال نار العداوة بين الشيعة والسنة خاصة بعد أن نظر الخليفة العثمانى ـــ خليفة المسلمين ـــ إلى الصفويين الشيعة على أنهم خارجون على إجماع المسلمين ، ومنحرفون عن طريق الإسلام القويم ، فأصبح لزاما على كل سلطان عثمانى أن يحارب الصفويين الشيعة وأن يحاول إسقاط دولتهم مما جعل الحروب متلاحقة بين الطرفين وظلت كفة العثمانيين راجحة طوال القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) إلى أن تولى الشاه عباس الأول الصفوى عرش الصفويين فى عام ٩٩٦ هـ (١٥٨٧ م) ، فانتهج سياسة محالفة الشيطان ضد العثمانيين السنيين .

وقد ظل الشاه عباس الأول ملكا على إيران إلى عام ١٠٣٨ هـ (١٦٢٩ م) ، فبلغت العداوة بين المعسكرين الشيعى والسنى أقصى حدة لها فى عصره ، مما أدى بعباس الصفوى إلى الاستعانة بالأجانب والتحالف معهم ضد العثمانين ، فاستعان بأخوين إنجليزيين ـــ هما روبرت وأنتونى شيرلى ـــ فى تدريب الجيش الإيرانى وتسليحه بإنشاء مصنع لإنتاج المدافع ، فتمكن بذلك من الصمود فى وجه العثمانين والانتقال بالشيعة في إيران من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم على العثمانين وسائر أعدائه من أهل السنة .

وقد هاجم أهل السنة ـــ فى عصر عباس الصفوى ـــ إيران من الشرق والغرب ، فغزا الأتراك الأوزبكيون السنيون إيران من الشرق وتمكنوا من بسط سيطرتهم على إقليم خراسان والاستيلاء على هراة ومشهد ، بينما

غزا العثمانيون السنيون ــ فى الوقت نفسه ــ إقليم أذربيجان وسيطروا عليه ، بعد أن اتخذ عباس الصفوى مدينة أصفهان ــ فى وسط إيران ــ عاصمة للدولة الصفوية حتى تكون بعيدة عن متناول العثمانيين ، واضطر عباس الصفوى إلى مهادنة العثمانيين وعقد معاهدة صلح معهم اعترف فيها بسيطرة العثمانيين على الأراضى التى سيطروا عليها ، ثم استدار لقتال الأوزبكيين وتمكن من إجلائهم عن إقليم خراسان ، واسترداد الأراضى التى كانوا قد سيطروا عليها ، وتفرغ بعد ذلك لقتال العثمانيين ــ بعد نقض معاهدة الصلح المبرمة بين الطرفين ــ فتمكن من استرداد إقليم أذربيجان ثم تقدم صوب الأراضى التركية ، واستطاع السيطرة على إقليمى أرمينية وجورجيا ، وبذلك رجحت كفة الصفويين الشيعة لأول مرة بعد أن ظل العثمانيون السنيون متفوقين على الصفويين الشيعة طوال قرن من الزمان .

وتمشيا مع سياسة التحالف مع الشيطان ضد أهل السنة اتصل عباس الصفوى بالدول الأوروبية وتحالف معها ضد العثمانيين ، وكانت أوروبا ــ فى ذلك الوقت ــ قد نفضت عن كاهلها غبار القرون الوسطى ودخلت عصر النهضة ، فتودد عباس الصفوى إليها ، ومنح بعضها امتيازات تجارية فى منطقة الخليج ، وقبل الإنجليز الحصول على امتيازات تجارية فى هذه المنطقة فى مقابل أن يعقدوا حلفا عسكريا مع عباس الصفوى يتعهدون فيه بالوقوف إلى جانب الصفويين الشيعة إذا حدث قتال بينهم وبين العثمانيين السنيين .

وكانت الدولة العثمانية ــ دولة الخلافة الإسلامية القوية ــ أكبر عقبة تقف فى طريق الدول الأوروبية النصرانية التى ساهمت قبل ذلك ــ فى الحروب الصليبية ضد المسلمين السنيين ، فتلاقت مصلحة الصفويين الشيعة مع مصالح الأوربيين الصليبيين ، فكلا الطرفين يرى مصلحته فى إضعاف الدولة العثمانية وتحطيمها بكل وسيلة ممكنة .

وهكذا وجهت الخلافات المذهبية السياسة الخارجية التى انتهجها عباس الصفوى وأثرت فى علاقاته مع العثمانيين السنيين. والأوربيين الصليبيين ، وطبق بذلك مبدأ التحالف مع الشيطان ضد أهل السنة أعدى أعداء الشيعة .

وأراد عباس الصفوى أن يثبت للأوروبيين الصليبيين أن النصارى أقرب إليه من المسلمين السنيين ، فسمح للنصارى من الإيرانيين بالإقامة فى ضاحية مستقلة من ضواحى مدينة أصفهان عاصمة الصفويين ، ومازالوا يقيمون فى هذه الضاحية ــ التى تسمى خُلْفا ــ إلى يومنا هذا .

كما أغرى عباس الصفوى الأوروبيين بزيارة عاصمة ملكه أصفهان ومنحهم امتيازات يسرت للسائحين منهم الإقامة والتنقل والتجارة مما ساعد على استقرار النفوذ الغربى فى منطقة الشرق الأوسط عن طريق التجارة ، وأثر هذا ــ بدوره ــ فى توجيه الأحداث السياسية والاقتصادية التى شهدتها المنطقة ــ بعد ذلك ، وهى أحداث مازالت آثارها باقية ملموسة إلى العصر الحاضر ، وقد نتجت عنها مشاكل

عديدة تعرف الآن باسم مشاكل الشرق الأوسط .

وحاول عباس الصفوى — كذلك — أن يجعل مدينة أصفهان — عاصمة الشيعة — موضع إعجاب زائريها من الأوروبيين الأجانب فأنشأ فيها كثيرا من المبانى الجميلة — والأسواق البديعة ، فأصبحت هذه المدينة — لجمالها وكثرة الآثار المعمارية الرائعة فيها — تطلق عليها عبارة « أصفهان نصف جهان » أى « أصفهان نصف العالم » ومازالت هذه الآثار البديعة قائمة فيها إلى يومنا هذا .

كما دفع التعصب المذهبى هذا الملك الصفوى إلى الاهتمام بمزار على الرضا — الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية — فى مدينة مشهد فزينه بأروع النقوش ، وطلا قُبَّتَهُ بالذهب الخالص ، وطعّم أبوابه ونوافذه وهيكل القبر بالجواهر الثمينة بحيث أصبح من الآثار الجميلة الرائعة التى يذهب إليها الزائرون ويبتهج بمشاهدتها الناظرون .

وقد حج عباس الصفوى إلى مشهد وسار من عاصمة ملكه أصفهان إلى مشهد سيرا على الأقدام ،[١] ودعا الشيعة إلى الاقتداء به ، والحج إلى مشهد ، وجعل أئمة الشيعة يعلنون أن الحج إلى مشهد يكفى ويغنى عن الحج إلى الكعبة وزيارة بيت الله الحرام ، فصار كثير من الشيعة يكتفون بالذهاب إلى مشهد وزيارة قبر الإمام على الرضا ويعدون ذلك حجا يغنيهم عن الذهاب إلى مكة فى أشهر الحج التى

(١) المسافة بين أصفهان ومشهد طويلة تقدر بمئات الأميال .

حددها رب العالمين فى القرآن الكريم .

ومنح عباس الصفوى — كذلك — رجال الدين وأئمة الشيعة امتيازات كثيرة وميّز طبقتهم ، فصارت طبقة محترمة ذات نفوذ وجاه فكثر المتمسحون بالدين والمتاجرون به ، وحاول أئمة الشيعة إرضاء العامة ، فروجوا كثيرا من الخرافات والأساطير لإثبات صحة رأى الشيعة فى المسائل الدينية المختلف عليها بين الشيعة والسنة ، واعتمدوا فى ذلك على الأحاديث الموضوعة المنسوبة كذبا إلى رسول الله — ﷺ — وعلى التفاسير المضللة لبعض الآيات القرآنية لبيان أن معتقدات الشيعة هى المعتقدات الصحيحة التى تتفق مع ما جاء فى الكتاب والسنة ، وأن أهل السنة خارجون عن النهج القويم ، ومنكرون لمبادىء الإسلام الصحيحة ، مما أدى إلى انتشار البدع والأباطيل فى المجتمع الشيعى منذ العصر الصفوى ، وحاول الحكام الصفويون أن يستغلوا كره الشيعة لأهل السنة فى إذكاء نار العداوة بين المعسكرين الشيعى والسنى وتقوية عزائم جند الشيعة فى حروبهم ضد العثمانيين وغيرهم من المخالفين لهم من السنيين .

وقد أدى تعصب عباس الصفوى الشديد للمذهب الشيعى الإمامى ونجاحه فى الوقوف فى وجه العثمانيين السنيين والانتصار عليهم ، إلى ظفره بحب الشيعة فى إيران ، وإعجابهم به وافتخارهم بأعماله ، فأطلقوا عليه لقب « الكبير » فلا يذكر فى كتبهم إلا متبوعا بهذا اللقب تقديرا لأعماله وإعجابا لشخصيته ومازال عباس الصفوى محبوبا فى إيران

إلى يومنا هذا حبا لم يظفر به حاكم إيرانى قبله أو بعده .

وكان عباس أقوى شخصية فى البيت الصفوى ، فلم يظهر — فى عصره — خطر التودد إلى الأوروبيين الصليبيين الطامعين فى استعمار بلاد المسلمين ، ولكن هذا الخطر أخذ فى الظهور بعد وفاته حين ضعفت الدولة الصفوية الشيعية ، كما ضعفت الدولة العثمانية السنية بينما قويت شوكة الدول الأوروبية الصليبية الطامعة فى بلاد المسلمين من الشيعة والسنة على السواء ، وانتهى الأمر بسقوط كثير من بلاد المسلمين فريسة بين مخالب الأوروبيين المستعمرين .

وقد خلف عباس الصفوى وراءه تركة مثقلة بالعداوة الشديدة بين الشيعة والسنة من ناحية ، وبالامتيازات التى منحها للأجانب الأوربيين المستعمرين — وخصوصا الإنجليز — من ناحية أخرى ؛ ولم يترك وراءه من يصلح لملء الفراغ الذى أوجده موته ، لأنه أقدم — قبل انتهاء حياته — على قتل بعض أبنائه ، وسمل عيون البعض الآخر خوفا من أن يتآمروا عليه ، فقوض بذلك بناء الدولة الصفوية ، وقضى على مستقبلها ، وأورثها الضعف والتفكك ، ففقدت هيبتها ، وذهبت شوكتها ، وطمع فيها أعداؤها السنيون ، وأصدقاؤها الأوروبيون الصليبيون المستعمرون .

وكان خلفاء عباس الصفوى من الملوك الضعفاء العاجزين عن تحمل العبء الذى تركه ، فأخذ زمام الأمور ينتقل بمرور الزمن إلى أيدى كبار رجال الدين .

وأخذ الضعف يتطرق إلى جسم الدولة الصفوية ، وبدأ الفساد ينتشر فى إيران كلما ازداد الملك الصفوى ضعفا ، حتى بلغ الضعف أشده فى عهد الشاه سلطان حسين الصفوى الذى حكم من عام ١١٠٦ هـ إلى عام ١١٣٥ هـ (١٦٩٤ ـ ١٧٢٢ م) ، فازدادت الأحوال اضطرابا فى داخل إيران مما أغرى أعداء الدولة الصفوية الشيعية من أهل السنة بمهاجمة أراضيها والاستيلاء عليها ، فتقدمت قبائل أفغانية سنية بقيادة محمود بن ميرويس لغزو الأراضى الإيرانية وتمكنت من الاستيلاء على إقليم كرمان ثم واصلت تقدمها صوب العاصمة أصفهان واستطاعت دخولها والسيطرة عليها وأجبرت الشاه سلطان حسين الصفوى الشيعى على التنازل عن العرش لمحمود بن ميروس الأفغانى السنى ، ثم تمكن الأفغان ـ بعد ذلك ـ من بسط ـ نفوذهم على إقليم فارس .

وهكذا وصل ضعف الدولة الصفوية إلى درجة مكنت بعض القبائل الأفغانية السنية من دخول عاصمة الصفويين والسيطرة عليها ، وجلوس قائد هذه القبائل على العرش بعد إقصاء الملك الصفوى .

كما أغرى ضعف الصفويين روسيا القيصرية النصرانية بالتقدم فى الأراضى الإيرانية ، والاستفادة من اختلال الأوضاع فيها ، واحتلال بعض هذه الأراضى ، وتمكنت القوات الروسية من احتلال السواحل الغربية والجنوبية لبحر قزوين ، ووضعها تحت السيطرة الروسية .

واستفاد العثمانيون السنيون ـــ كذلك ـــ من ضعف الصفويين فزحفوا على الأراضى الإيرانية الغربية المجاورة لهم وتمكنوا من السيطرة عليها .

وهكذا أصبحت الأراضى الإيرانية مطمعا لأعداء الصفويين فى الشرق والغرب والشمال ، فانقسمت إيران بذلك إلى مناطق نفوذ تخضع كل منطقة منها لسيطرة قوة تختلف عن القوة التى تسيطر على منطقة أخرى من الأراضى الإيرانية .

غير أن رجلا قبليا من طائفة الأفشار الشيعية يدعى « نادرقلى » تمكن بجيش من أفراد قبيلته من الاستيلاء على إقليم خراسان وأخذ يمسك بزمام الأمور فى هذا الإقليم ، وظهرت قوته مما جعل الشاه طهماسب الثانى الصفوى ابن الشاه سلطان حسين يستعين به ، ويعينه قائدا للجيش الصفوى مما يسر لنادر فرصة الظهور وتدعيم قوته ، فاستطاع فى مدة وجيزة أن يصبح أقوى شخصية فى إيران ، وتمكن من هزيمة الأفغان السنيين وإجلائهم عن جميع المناطق التى كانوا قد سيطروا عليها ـــ قبل ذلك ـــ كما نجح فى استرداد المناطق التى كان الروس قد سيطروا عليها ، وتمكن ـــ كذلك ـــ من إرغام العثمانيين على الانسحاب من الأراضى الغربية التى كانوا قد بسطوا نفوذهم عليها ، أى أن هذا القائد الأفشارى نجح فى استرداد الأراضى الإيرانية التى اغتصبها الطامعون ، وتمكن من توحيد إيران ، وأصبح فى منزلة رفيعة هيأت له فرصة عزل الشاه طهماسب الثانى الصفوى وتعيين ابنه الطفل عباس

الثالث الصفوى ملكا على الصفويين ، وصار نادر وصيا على العرش ، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فقد أقدم نادر بعد ثلاث سنوات من تعيينه وصيا على العرش على عزل عباس الثالث الصفوى ــ فى عام ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) ــ وأعلن نفسه ملكا على إيران ، واتخذ لقب الشاه ، كما أعلن سقوط الدولة الصفوية ، وقيام دولة شيعية جديدة ــ حلت محلها ــ هى الدولة الأفشارية التى كان عليها أن تحاول إصلاح ما أفسده الصفويون .

وقد حاول نادر شاه أن يخفف من حدة الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة ــ تمهيدا للقضاء على هذه الخلافات إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ــ فأمر بعدم سب الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان ــ رضى الله عنهم ــ من فوق المنابر فى إيران ، وأخذ يفاوض العثمانيين فى الاعتراف بالمذهب الشيعى الإمامى مذهبا خامسا من المذاهب الإسلامية يضاف إلى المذاهب الأربعة المعترف بها بين أهل السنة على أن يعين أمير إيرانى للحج بنفس الصورة التى يعين بها أمير مصرى أو أمير شامى للحج ، وأن تسوى الخلافات المذهبية بين أهل السنة والشيعة بالحسنى حرصا على وحدة الصف الإسلامى فى وجه القوى الأوروبية الصليبية الاستعمارية .

غير أن حدة التعصب المذهبى جعلت العثمانيين يقبلون كل شيء ما عدا الاعتراف بالمذهب الشيعى الإمامى ضمن المذاهب الإسلامية المعتبرة ، كما جعلت الإيرانيين لا يرضون عن نادر شاه بل

يتهمونه بالانحراف عن التشيع والتآمر مع العثمانيين للقضاء على المذهب الشيعى والدولة الشيعية فى إيران ، كما يتهمونه بالجنون فأخذت الفتن تنتشر فى أنحاء إيران المختلفة ـ ضد نادر شاه لأن أكثر الإيرانيين كانوا من الشيعة المتعصبين الذين رسخت تعاليم الصفويين فى أعماق نفوسهم ، فصاروا لا يقبلون غيرها بديلا .

وكانت قبائل القزلباشية المعروفة بتعصبها الشديد للمذهب الشيعى على رأس المعارضين لسياسة نادر شاه فدبروا مؤامرة لاغتياله ، ونجحت المؤامرة فتم قتل نادر شاه فى عام ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م) فخفت بمقتله كل صوت يدعو إلى تخفيف حدة التعصب المذهبى بين الشيعة والسنة مراعاة لمصلحة المسلمين جميعا .

ويكفى هذا دليلا على بيان أثر التعصب المذهبى فى سياسة كل من المعسكرين الشيعى والسني منذ اصطباغ إيران بالصبغة الشيعية فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

وكان « نادر شاه » أقوى شخصية ظهرت فى إيران بعد الشاه عباس الصفوى ، فقد تمكن من توحيد إيران بعد تقسيمها إلى مناطق نفوذ ، كما استطاع أن يغزو بلاد الهند فى عام ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م) ، وأن يسخر ـ وهو فى طريقه إلى الهند ـ قندهار وغزنه وكابل وأن يتوغل فى أفغانستان ، وأن تبلغ حملته على بلاد الهند إلى عاصمتها دلهى ، وأن تحقق له مغانم كثيرة .

كما امتد نفوذ « نادر شاه » إلى بخارى وفيوه وجميع بلاد الأوزبكيين وقام بمحاولة جادة لبناء أسطول إيرانى فى الخليج ، وبسط سيطرته على البحرين فى عام ١١٥١ هـ (١٧٣٨ م) ، وسار فى عام ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) لفتح العراق وتمكن من الاستيلاء على الموصل ثم استولى على البصرة .

ولكن أهم أعماله ــ على الإطلاق ــ هو سعيه لتوحيد الصف الإسلامى وإزالة الخلافات المذهبية أو التخفيف من حدتها ــ على الأقل ــ ودفع الخطر الذى تعرض له العالم الإسلامى بسببها ، وهى محاولة دفع نادر شاه حياته ثمنا لها دون أن يوفق فيها ، فلم تفده الانتصارات التى حققها شيئا ، ولم تؤد إلى حب الشيعة له ، بعد أن أعماهم التعصب المذهبى ، فاغتالوه وقضوا على كل محاولة للتقريب بين المذاهب الإسلامية وإزالة الجفوة بين الشيعة والسنة من أجل توحيد صفوف المسلمين فى وجه أعداء الإسلام والمسلمين من المستعمرين والصليبيين واليهود والشيوعيين الملحدين .

وقد سادت الفوضى والاضطرابات أنحاء إيران المختلفة عقب مصرع نادر شاه ، وحاولت كل قبيلة ــ أن تبسط نفوذها على منطقة من المناطق ، فكثرت الحروب الداخلية بين القبائل ، وتمكنت طائفة الأفشار من السيطرة على أصفهان وشيراز وأكثر الأجزاء الجنوبية من إيران .

واتخذ « كريم خان الزندى » مدينة شيراز عاصمة له وأقام فيها الدولة

الزندية ، وأنشأ فيها كثيرا من القصور والمساجد لا تزال قائمة فيها ــ إلى يومنا هذا ــ شاهدة على رقى الحضارة الإيرانية فى ظل الدولة الزندية .

كما استطاعت طائفة ــ القاجار أن تسيطر على إقليم مازندران بعد مصرع نادر شاه ، وحاولت الوصول إلى المناطق الجنوبية من إيران ــ ولكن كريم خان الزندى وقف لهم بالمرصاد ، ومنعهم من التقدم صوب الجنوب ، فلما توفى كريم خان استطاع القاجار بقيادة زعيمهم آقا محمد أن يبسطوا نفوذهم على وسط إيران فاستولوا على مدينة طهران واتخذوها عاصمة لدولتهم القاجارية التى كان آقا محمد أول ملوكها ، وهى الدولة التى ظلت تحكم إيران إلى أن أسقطها رضا بهلوى فى النصف الأول من القرن الميلادى الحالى ، بينما ظلت طهران عاصمة لإيران بعد أفول نجم القاجاريين .

وقد استطاعت الدولة القاجارية بعد قيامها أن تسقط الدولة الزندية وأن تبسط سيطرتها على سائر الأراضى الإيرانية . دون منافس .

ورغم تغير الدول الحاكمة فى إيران بعد الدولة الصفوية فإن التعصب المذهبى ظل يوجه سياسة إيران فى داخل البلاد وخارجها ، وقد ظهرت آثار هذا التعصب فى جوانب الحياة الأخرى من اجتماعية واقتصادية وعلمية وفنية فى العصر الحديث ، وما زالت هذه الآثار ملموسة إلى الوقت الحاضر .

ولقد أدى التعصب المذهبى إلى اشتباك الشيعة فى إيران وأهل السنة وخاصة فى الدولة العثمانية فى حروب طاحنة كثيرة أضعفت قوة الطرفين على السواء ، فتحول السلطان العثمانى خليفة المسلمين السنيين من الباب العالى المرهوب الجانب إلى الرجل المريض الذى يفكر الأوروبيون الصليبيون المستعمرون فى أمره ، إما بالقضاء عليه نهائيا ، وإما بالإبقاء عليه ليكون فى مواجهة روسيا القيصرية .

ومهما يكن من شىء فإن المسلمين من شيعة وسنة كانوا فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) أضعف من أن يواجهوا الدول الأوروبية الناهضة الطامعة فى بسط نفوذها على العالم الإسلامى بكل وسيلة ممكنة .

وإذا تتبعنا سير الأحداث فى إيران فى العصر القاجارى فإننا نجد النفوذ الغربى قد أخذ يتزايد فى هذه البلاد بعد قتل آقا محمد ــ مؤسس الدولة القاجارية ــ فى عام ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) ففى عهد خليفته ــ ابن أخيه ــ فتحعلى شاه تطورت الأحداث العالمية على أثر الخلافات الشديدة التى ثارت بين إنجلترا وفرنسا ــ للظفر بمزيد من مناطق النفوذ ــ فأصبح العصر حافلا بالأحداث السياسية المثيرة ، التى أثرت فى إيران منذ عصر فتحعلى شاه .

وقد استمر حكم فتحعلى شاه إلى عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) ، مما جعل عصره يشهد ألوانا من الصراع بين الدول الأوروبية الاستعمارية المتنازعة ــ وبخاصة إنجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية ــ فقد تطلعت

روسيا إلى بسط سيطرتها على الأجزاء الشمالية من إيران ، بينما حاولت إنجلترا بسط نفوذها على الأجزاء الجنوبية منها ، وسعت فرنسا — فى عهد نابليون الأول — إلى توثيق صلاتها بإيران ، حتى يسمح ملكها فتحعلى شاه للجيش الفرنسى بالعبور من الأراضى الإيرانية لضرب الإنجليز فى شبه القارة الهندية .

وهكذا واجهت إيران — فى عصر فتحعلى شاه — قوى أجنبية طامعة أكبر من قوتها ، فاضطربت سياستها ، وتناقضت أفعالها فى بعض الأحيان ، لأنها اتصلت اتصالا مباشرا بالدول الأوروبية ، وأبرمت معاهدات مع عدد من الدول ، كان لها أثر كبير فى توجيه سياستها الخارجية ، وتحديد صلاتها بالدول المختلفة بعد عصر فتحعلى شاه ، مما جعل الدارسين يُحَمِّلُون فتحعلى شاه وزر السياسة التى سار عليها الملوك الذين خلفوه ، ولكن الحقيقة هى أن ملوك إيران فى القرنين الآخرين — كانوا يواجهون قوى أجنبية أقوى منهم ، وكانت هذه القوى تتنافس فى بسط نفوذها على إيران .

وقد بدأ فتحعلى شاه اتصاله بالغرب بعقد معاهدة تحالف بين إيران وفرنسا فى عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م) قبلت إيران بمقتضاها السماح للجيش الفرنسى بالمرور من الأراضى الإيرانية وهى فى طريقها لغزو الهند فى مقابل أن تتعهد فرنسا بإمداد إيران بالأسلحة الحديثة ، وإرسال بعثة عسكرية لتدريب جيشها على استعمال هذه الأسلحة حتى يستطيع الوقوف فى وجه الزحف الروسى المتلاحق على الأجزاء الشمالية

من إيران .

وقد أفزعت هذه المعاهدة إنجلترا ، فسعت بدورها إلى إبطال مفعولها ، فطلبت من فتحعلى شاه أن يعقد معاهدة مع إنجلترا لهذا الغرض ، وخشى فتحعلى شاه بأس إنجلترا فرضخ وأبرم معاهدة معها ، وافق فيها على عدم السماح للجيش الفرنسى باستعمال الأراضى الإيرانية ، فى مقابل أن تقوم انجلترا بتدريب الجيش الإيرانى وتزويده بالأسلحة الحديثة والوقوف بجانب إيران حين حدوث نزاع بينها وبين روسيا القيصرية .

وهكذا وقع فتحعلى شاه على معاهدتين متناقضتين فى وقت واحد مما يدل على ضعفه وعدم قدرته على مواجهة الدول الأوروبية الكبرى فى عصره .

وخدمت الظروف انجلترا ، فقد اتفق نابليون مع روسيا ، ونفض يده من مساعدة إيران ، مما أدى إلى تقوية النفوذ الإنجليزى فيها ، كما أن انجلترا ــ حرصا على مصالحها ــ كانت تفسر نصوص المعاهدة المبرمة بينها وبين إيران تفسيرا يتفق مع مصالحها هى فأدت المعاهدة إلى تقوية نفوذها فى إيران ، ولم تؤد إلى مساعدة إيران على الوقوف فى وجه الغزو الروسى المتلاحق للأراضى الإيرانية ، أو التقليل من خطره على الأقل .

وهكذا أصبحت إيران ــ منذ العصر القاجارى ــ مسرحا

تتصارع فوقه الدول الأجنبية القوية ، وتحاول كل دولة من هذه الدول أن تجعل نفوذها أكثر قوة ، بينما تختفى شخصية الشعب الإيرانى صاحب المصلحة الحقيقية فى بلاده .

وتتابعت الحروب بين إيران وروسيا القيصرية ، وكانت كفة روسيا هى الراجحة ، فكانت كل حرب تنتهى بمعاهدة تزيد من نفوذ روسيا فى إيران ؛ ففى عام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) عقدت معاهدة كلستان بين روسيا وإيران ، واعترفت إيران فيها بحق روسيا فى امتلاك إقليم جُورجيا .

وانتهزت إنجلترا فرصة ضعف إيران ، فعقدت معها معاهدة فى عام ١٢٣٠هـ (١٨١٤م) ربطتها فيها بعجلتها ، فجعلتها تابعة لها فى سياستها الخارجية ، بحيث تكون صلاتها بالدول الأجنبية تبعا لصلات انجلترا بهذه الدول .

وفى عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) شبت الحرب من جديد بين إيران وروسيا ، وتمكنت روسيا من بسط سيطرتها على إقليم آذربيجان فتوسطت إنجلترا بين الطرفين وانتهى الأمر بعقد معاهدة « تركمان جاى » التى تنازلت إيران بمقتضاها لروسيا عن إقليمى « أريوان » و « نخجوان » مع دفع غرامة حربية كبيرة ، كما أعطت المعاهدة لروسيا حق الملاحة والرقابة الحربية على بحر قزوين ومنحتها امتيازات كثيرة اقتصادية وجمركية وتجارية ذكرت فى ملحق بهذه المعاهدة ــ منها السماح للتجار الروس بحرية التنقل فى الأراضى الإيرانية ــ هم

وبضائعهم — وامتلاك البيوت التى يقيمون فيها والحوانيت والمخازن التى يضعون فيها بضائعهم .

والواقع أن معاهدة « تركمان جاى » جعلت نفوذ روسيا القيصرية فى إيران يفوق نفوذ غيرها من الدول الأجنبية .

وقد حاولت إنجلترا أن تنافس روسيا فى التدخل فى شئون إيران الداخلية ، فصارت إيران منذ ذلك الوقت إلى قيام الحرب العالمية الأولى — فى عام ١٩١٤م — موزعة بين النفوذين الروسي والإنجليزي ، وكانت مصالح الدولتين — فى إيران — متعارضة لأن روسيا تحاول التوسع فى آسيا عن طريق إيران ، وتسعى إلى السيطرة على ميناء فى المياه الدافئة فى الخليج ، بينما كانت إنجلترا تحاول السيطرة على منطقة الخليج وجميع المناطق المجاورة للهند التى كانت تعد أعظم مستعمراتها .

وخلف فتحعلى شاه حفيده محمد شاه فى عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) فحاول الاستعانة بروسيا فى إقرار الأحوال الداخلية المضطربة فى إيران ، وفى إعادة فتح مدينة « هراة » ، واستغلت روسيا هذه الفرصة فبسطت نفوذها على بلاد القوقاز والتركستان ، ولكن إنجلترا اعترضت على سياسة محمد شاه وأرسلت سفنها الحربية إلى الخليج وأنزلت جنودها فوق الأراضى الإيرانية فاضطر الملك القاجارى إلى الرضوخ ورفع الحصار عن مدينة « هراة » ثم أخذ نفوذ الإنجليز فى إيران فى الازدياد بعد ذلك .

وازدادت الحالة فى إيران اضطرابا بعد وفاة محمد شاه واعتلاء ابنه

ناصر الدين شاه العرش فى عام ١٨٤٨م ـــ وهو فى السادسة عشر من عمره ـــ وامتاز عهده الطويل بازدياد النفوذ الروسى فى إيران ، فقد حرص على إقامة علاقات ودية مع الروس ، وحاول أن يستفيد من هذه العلاقات فى معاودة الهجوم على أفغانستان ـــ فى عام ١٨٥٦م ـــ و تمكن من استرداد مدينة « هراة » ولكن إنجلترا اعترضت على هذا التصرف من جانبه ، وطالبته بالجلاء عن هذه المدينة ، ولما تباطأ ناصر الدين شاه فى تنفيذ ماطالبت به إنجلترا ، أعلن الحاكم الإنجليزى فى الهند الحرب على إيران ، وأنزل قوات إنجليزية فى منطقة الخليج ، فاضطر الشاه إلى التسليم بمطالب انجلترا ، فانسحب الجيش الإيرانى من مدينة « هراة » ثم اعترفت إيران باستقلال أفغانستان فى معاهدة أبرمت بين الطرفين فى باريس ـــ فى عام ١٨٥٧م[١] ، وقد منحت هذه المعاهدة إنجلترا امتيازات أجنبية وحقوقا تجارية كثيرة فى إيران .

وقد قتل ناصر الدين شاه فى عام ١٨٩٦م فخلفه ابنه مظفر الدين شاه ، فازداد الفساد فى عصره ، وعظم النفوذ الأجنبى فى إيران ـــ وبخاصة النفوذ الروسى ـــ بينما انغمس هذا الملك فى اللهو والملذات ، وشغل الأمراء ورجال البلاد بجمع الثروات الطائلة على حساب الشعب البائس ، فتجمعت ثروات البلاد فى أيدى عدد قليل من المستغلين بينما كان الجزء الأكبر من أفراد الشعب الإيرانى يقاسى من الفقر والحرمان .

---

(١) كانت أفغانستان حتى ذلك الوقت إقليما من أقاليم إيران برغم أن أهلها يتبعون المذهب السنى .

وأخذ مظفر الدين شاه يقترض من روسيا ، كما أخذ الفساد ينتشر فى البلاد مما أشعل الثورة الوطنية من جانب المثقفين من الشباب والتجار ورجال الدين ، وطالب الثوار الأحرار بإقامة حياة نيابية فى إيران ، واضطر الشاه إلى الرضوخ خوفا على عرشه ، فأعلن الدستور فى عام ١٩٠٦م .

وتشكل أول مجلس نيابى فى إيران ، ولكن مظفر الدين شاه توفى فى يناير من عام ١٩٠٧م ، وخلفه ابنه محمد على شاه الذى حاول ضرب الحركة الوطنية مستعينا بالروس فى القضاء عليها .

ثم حدث فى هذا العام كذلك أن اتفقت إنجلترا وروسيا على تقسيم إيران إلى منطقتى نفوذ ، وعقدتا اتفاقية بينهما لتنظيم هذا التقسيم ، فنصت الاتفاقية على جعل القسم الشمالى من الأراضى الإيرانية تحت النفوذ الروسى ويمتد هذا القسم إلى طهران وأصفهان .

أما القسم الخاضع للنفوذ الإنجليزى فكان أصغر مساحة من القسم الروسى ، لأنه كان ينحصر فى الركن الجنوبى الشرقى من إيران — وبخاصة منطقة الخليج — وكانت المنطقة الواقعة بين هذين القسمين محايدة ، غير أن الاتفاقية لم تحددها بدقة ، فصارت ميدانا للنشاط الإنجليزى .

وقد قام الشاه — فى عام ١٩٠٨م — بضرب مبنى البرلمان بالمدافع وقتل عددا من النواب ، ثم أعلن حل المجلس النيابى ، غير أن ردّ

الشعب الإيرانى على هذا العمل كان سريعا وحاسما ، فقد اشتعلت نيران الثورة فى جميع أنحاء البلاد وتقدمت قوات من الشعب من أصفهان إلى طهران واحتلتها ــ فى عام ١٩٠٩م ــ ، فلجأ محمد شاه إلى السفارة الروسية ، ثم هرب إلى روسيا .

وعادت الحياة النيابية إلى إيران ، وعين أحمد شاه بن محمد على شاه ملكا ولكن النفوذ الروسى ظل قويا فى إيران ، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وبرغم أن إيران أعلنت حيادها ، فلم تنضم إلى أحد من الطرفين المتحاربين فإن أراضيها كانت مرتعا للدسائس والمؤامرات .

وبعد انتهاء الحرب ، رفض مؤتمر الصلح مطالب إيران ، فاضطرت إلى قبول معاهدة فرضها الإنجليز ــ فى عام ١٩٢٠م ــ ، وقد نصت هذه المعاهدة على احترام استقلال إيران ، ومدها بالمستشارين والخبراء والأسلحة ، بشرط أن تدفع مرتبات المستشارين والخبراء وثمن الأسلحة ؛ كما نصت المعاهدة على أن تقدم انجلترا قرضا لإيران ، وتنشيء الطرق والسكك الحديدية ، وتشرف على الجمارك .

وهكذا وضعت إنجلترا ــ إيران ــ بهذه المعاهدة ــ تحت سيطرتها ، وقبل الشاه وحكومته المعاهدة دون اعتراض ، ولكن أمريكا أبدت اعتراضها عليها ، كما أن الشعب الإيرانى ثار عليها ، فسادت البلاد حالة من الفوضى والاضطراب ، فاضطر الشاه ومن حوله ــ من المسئولين ــ إلى التراجع ــ رغم الضغط الإنجليزى عليهم ــ فرفض المجلس النيابى التصديق على هذه المعاهدة .

وفى عام ١٩٢١م أبرمت روسيا السوفيتية معاهدة صداقة مع إيران فيها شيء من التساهل من جانب الروس ، فقد أسقطوا بمقتضاها جميع الديون التى كان على إيران أن تسددها لروسيا التى تنازلت — كذلك — عن جميع الامتيازات التى كانت لها فى إيران وردت إليها جميع ممتلكاتها كالمصرف الروسى فى طهران ، وخطوط البرق ، كما ألغت المعاهدة الامتيازات الأجنبية ومنحت إيران حقوقا ملاحية فى بحر قزوين مساوية تماما للحقوق الروسية ، كما نصت المعاهدة على عدم السماح ببقاء قوات معادية لإحدى الدولتين فى أراضى الدولة الأخرى ، أو استعمال هذه الأراضى فى أى نشاط معاد للدولة الأخرى ، وأن تقوم بصد هذه القوات وطردها من أراضيها ، فإذا كانت إيران لاتستطيع صد هذه القوات المعادية لروسيا ، فإن لروسيا الحق فى أن ترسل قواتها إلى الأراضى الإيرانية لصد هذا الخطر والدفاع عن سلامة الأراضى الإيرانية والروسية على السواء .

ولم تلبث هذه الأوضاع المضطربة أن فجرت ثورة الشعب الإيرانى ضد الحكام الضعفاء المتخاذلين ، فاشتعلت نيران الثورة الوطنية بين جميع الطبقات بما فيها القوات المسلحة التى اشتركت فى الثورة — فى عام ١٩٢١م — بقيادة رضا خان أحد ضباط هذه القوات ، وقد استطاع رضا خان أن يصير قائدا للقوات المسلحة ووزيرا للحربية ، فتمكن من الإمساك بأزمة الأمور فى إيران ثم صار رئيسا للوزراء فى عام ١٩٢٣م ، فازداد قوة ، وتمكن من إقصاء أحمد شاه آخر ملوك الدولة القاجارية عن الأراضى الإيرانية ثم عن العرش ، ولم يلبث رضا خان أن

اعتلى عرش إيران فى عام ١٩٢٥م وسمى رضا شاه بهلوى ، وأعلن قيام دولة جديدة هى الدولة البهلوية .

وحاول رضا شاه أن يقف فى وجه النفوذ الأجنبى وأن ينهى نظام الامتيازات الأجنبية ، ويضع حدا للاقتراض من الدول الأخرى ، وأن يقضى على مظاهر الشيوعية فى إيران .

كما حاول رضا شاه أن يغير النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى إيران ، وأن ينشىء جيشا مزودا بالأسلحة الحديثة وأن يحد من نفوذ رجال الدين ، حتى صار الزى الدينى لا يلبس إلا بتصريح خاص ، وألغيت الاحتفالات الدينية ومواكب التعزية فى مقتل الحسين فى يوم عاشوراء .

وهكذا ساد الحكم الدكتاتورى فى عصره ، ففقد البرلمان روح الاستقلال ، فكان يوافق على كل اقتراح تقدمه الحكومة بأمر من الشاه .

وانعدمت حرية الكلام والصحافة ، وأنشأت الحكومة إدارة خاصة لتوجيه الرأى العام ، ولم تتح فرصة لظهور المصلحين والزعماء الوطنيين ، وقد استعان رضا شاه بالجيش فى فرض دكتاتوريته ، وتنفيذ أوامره ، فنشر جوًّا من الخوف بين أفراد الشعب الإيرانى ، فخضعوا لأوامره ، وأذعنوا لاستبداده .

كما أن رضا شاه حرص على أن يثرى ثراء فاحشا ، فاستغل سلطاته فى انتزاع ملكية كثير من القرى وجعلها ملكا خاصا له وكان

يستعمل القوة فى الاعتصاب والتملك .

وظل رضا شاه حاكما مستبدا إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ م ، فأعلن حياد إيران ، ولكنه كان مرتبطا بعلاقات ودية خاصة مع ألمانيا ، تفوق علاقاته بالدول الأوروبية الأخرى ، كما كان ينفر من الشيوعية نفورا شديدا ويخشى انتشار مبادئها فى إيران ، فلما هاجمت ألمانيا روسيا فى يونيه من عام ١٩٤١ م ، واستتبع هذا الهجوم إيجاد تحالف جديد بين إنجلترا وروسيا أدركت هاتان الدولتان أهمية إيران من الناحية الاستراتيجية . باعتبارها طريقا مهما آمنا لإمداد روسيا باحتياجاتها ، فاتفقت الدولتان على غزو إيران واحتلال أراضيها .

وفى ٢٦ أغسطس من عام ١٩٤١م هاجمت القوات الروسية إيران من ناحية الشمال الغربى ، بينما غزت القوات الإنجليزية إيران من ناحية حدودها المشتركة مع العراق كما أنزلت قوات فى منطقة الخليج ، وهاجمت السفن الإنجليزية السفن الإيرانية فى ميناء « خرمشهر » وأغرقتها وأحدثت خسائر فادحة فى أرواح الإيرانيين ، فلم يستطع الجيش الإيرانى فى منطقة الخليج أن يقاوم أكثر من ثلاثة أيام اضطر بعدها إلى التسليم ، فأصبح رضا شاه بلا حول ولا قوة ، وأرغم على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا ، ثم نفى خارج إيران ، وظل فى المنفى إلى أن توفى فى جنوب أفريقيـة فى عام ١٩٤٤ م وكانت الحرب لاتزال قائمة ، فلم يسمح بدفنه فى إيران ، فدفن فى القاهرة ، ثم نقل جثمانه إلى إيران حيث دفن فى محلة « شاه عبد العظيم » فى عام ١٩٥٠ م .

واعتلى محمد رضا شاه عرش إيران وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره والقوات الأجنبية الإنجليزية والروسية تحتل بلاده ، فطأطأ رأسه أمام النفوذ الأجنبى ، وأذعن لرغبات المستعمرين . وأعلن تأييد إيران للحلفاء فى متابعة الحرب ضد ألمانيا .

وعقدت معاهدة تحالف ثلاثية بين إيران وإنجلترا وروسيا فى ٢٩ يناير من عام ١٩٤٢ م تعهدت إنجلترا وروسيا فى أول مادة منها باحترام سيادة إيران واستقلالها السياسى والمحافظة على حدودها ، ومساعدة الشعب الإيرانى على التغلب على الفقر والتخلف فى مقابل منح الحليفتين كافة التسهيلات الممكنة حتى تنتهى الحرب مع ألمانيا ، على أن تنسحب القوات المتحالفة من الأراضى الإيرانية خلال ستة أشهر بعد انتهاء الحرب بين قوات الحلفاء وقوات ألمانيا وحليفاتها .

وأصبحت إيران ـــ منذ ذلك الوقت ـــ أرض مفتوحة أمام قوات الحلفاء ، فوفدت عليها القوات الأمريكية فى ديسمبر من عام ١٩٤٢ م كما قطعت إيران علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا وإيطاليا واليابان وأعلنت الحرب على ألمانيا ، وصارت تدور فى فلك الحلفاء .

وفى أواخر نوفمبر من عام ١٩٤٣ عقد الحلفاء مؤتمرا فى طهران حضره روزفلت وستالين وتشرشل ووافقوا على مواصلة تقديم المساعدات الاقتصادية لإيران ، وتعهدوا بالمحافظة على استقلالها وسلامة حدودها .

غير أن وجود قوات الحلفاء فى أراضيها أدى إلى قلة الطعام وندرة البضائع ـــ من كل نوع ـــ وارتفاع الأسعار ، وإيجاد تضخم مالى ،

فاضطربت الأحوال فى إيران إضطرابا شديدا .

ورغم أن قوات الاحتلال جلت عن إيران فى عام ١٩٤٦ م فإن النفوذ الأجنبى لم يجل عنها ، وبعد أن كان التنافس على جعل إيران منطقة نفوذ منحصرا بين انجلترا وروسيا ، دخلت الولايات المتحدة الأمريكية ميدان التنافس ، واستطاعت أن تجعل نفوذها فى إيران يطغى على النفوذين الإنجليزى والروسى .

وقد آثر محمد رضا الارتماء فى أحضان الغرب والدوران فى فلك الدول الغربية ـــ وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ـــ وحاول القضاء على النفوذ الروسى فى بلاده ، وَقَبِلَ أن يطلق عليه لقب « شرطى الغرب فى منطقة الخليج » .

ودفعه ولاؤه للغرب إلى مقاومة الحركة الوطنية ، التى كانت تطالب بالتحرر من الاستعمار السياسى والاقتصادى والثقافى ، والقضاء على الإقطاع ، ولذلك عادى الدكتور محمد مصدق رئيس الوزراء الذى انتهج سياسة وطنية ، وأمم شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، وتآمر مع الولايات المتحدة الأمريكية لإسقاط وزارة مصدق والقبض عليه وإيداعه السجن وقتل الزعماء الوطنيين ، والتنكيل بالضباط الأحرار وقتل المئات منهم .

وهكذا أجبر محمد رضا على جعل إيران منطقة نفوذ للغرب فانضم إلى الحلف المركزى ، وعقد حلفا عسكريا ثنائيا مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وتحدى إرادة الشعب الإيرانى حتى تحركت القوى

الوطنية مجتمعة بقيادة الزعيم الدينى آية الله الخمينى فى عام ١٩٧٨ م وتمكنت من إسقاطه من فوق العرش فى يناير ١٩٧٩ فخرج من إيران ، وهام على وجهه ، لا يجد بلادا تقبل إقامته فيها بما فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية ، وأخيرا قبلت مصر أن يقيم فيها ، فجاء إلى مصر مريضا بمرض خطير ، ولم تطل إقامته فيها ، فقد وافته المنية ودفن فى القاهرة فى المكان الذى دفن فيه والده من قبل ، ومازالت رفاته فى القاهرة إلى يومنا هذا .

وهكذا أثرت الخلافات المذهبية فى سياسة إيران الخارجية منذ عصر الدولة الصفوية إلى العصر الحاضر ، وجعلها تعصبها للمذهب الشيعى تشكل معسكرا معاديا للمعسكر السنى ، وكما استمرت الحروب بين المعسكر السنى بزعامة العثمانيين والمعسكر الشيعى بزعامة الصفويين ، قامت الحرب بين المعسكر الشيعى بزعامة الخمينى والمعسكر السنى بزعامة صدام حسين منذ أكثر من سبع سنوات وكان السبب الرئيسى فى قيامها الخلافات المذهبية(١) .



(١) ارجع إلى كتاب المؤلف : وماذا بعد البصرة ؟ ! .. للحصول على معلومات مفصلة فى هذه المسألة .

الفصل الثالث

أثر الصبغة الشيعية فى النواحى الدينية والاجتماعية والاقتصادية

كان لاصطباغ إيران بالصبغة الشيعية بعد قيام الدولة الصفوية فى أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أثر واضح فى جميع ألوان النشاط البشرى فى هذه البلاد ، كما كان له أثر فى علاقات الإيرانيين بالشعوب المجاورة لهم ، مما سنوضحه فيما يلى :

أولا : الناحية الدينية :

ظهر أثر الصبغة الشيعية فى معتقدات الإيرانيين ، وسلوكهم وفق هذه المعتقدات الشيعية ، فقد أصبح الإيرانيون يعتقدون أن خلافة المسلمين بعد وفاة رسول الله ــ ﷺ ــ كان يجب أن تؤول إلى على ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ دون منازع ، وعلى هذا تبطل خلافة كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ وقد أباح الشيعة لأنفسهم سب هؤلاء الخلفاء الراشدين الثلاثة من فوق المنابر ، واتهامهم باغتصاب الخلافة من على ابن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ ومن أولاده من بعده .

ويعتقد الشيعة فى إيران ــ كذلك ــ أن خلفاء بنى أمية والخلفاء العباسيين مغتصبون كالخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ــ وأن الخلافة بعد رسول الله ــ ﷺ ــ ينبغى أن تكون فى على وتكون بعده فى ابنه الحسن ثم فى ابنه الحسين ثم فى على زين العابدين بن الحسين من زوجته الفارسية « شهر بانو »[1] بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين ، ثم فى أبناء على زين العابدين إلى محمد بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر عندهم ، وهو الذى تنتهى به سلسلة ــ الإمامة ــ فى عام ٢٦٠ هـ ــ لأنه غاب ولم يمت والشيعة ينتظرون ظهوره فى ليلة النصف من شعبان ، وهو الإمام الغائب أو المهدى المنتظر الذى يكون ظهوره إيذانا بقرب قيام الساعة ، ويعد آية الله الخمينى نائبا له حسب معتقدات الشيعة .

كما أدى اصطباغ إيران بالصبغة الشيعية ــ منذ عصر الدولة الصفوية ــ إلى اعتبار الحسين بن على ــ رضى الله عنهما ــ سيد الشهداء وهذا يخالف ما يعتقده أهل السنة من أن الحمزة عم الرسول وشهيد أحد هو الذى لقب بسيد الشهداء ، وقد أدى هذا الاعتقاد من قِبَل الشيعة إلى اعتبار تحرك الحسين ضد الأمويين ثورة قادها لإنقاذ الإسلام من انحرافهم ، فالحسين ــ على حد تعبيرهم ــ استشهد لينقذ الإسلام من الضياع ، ولهذا فإن البكاء على الحسين يوم عاشوراء ــ الذى استشهد فيه ــ يمسح الذنوب ويغفر ما تقدم منها ، مما جعل الاحتفال بعاشوراء واجبا دينيا يقوم به الحكام والمحكومون على السواء

(١) « شهربانو » معناها « سيدة المدينة » .

ويبالغون فى إظهار عواطفهم المذهبية فى هذا اليوم الحزين .

واستتبع هذا رفع منزلة رجال الدين من فقهاء الشيعة ، وقد أعلى الشاه عباس الكبير شأنهم ، وجعلهم طبقة مميزة ، وخصص لهم خمس أرباح التجار والزراع وأصحاب رءوس الأموال على أنهم ورثة الأنبياء تطبيقا للتفسير الشيعى لقول الله تعالى :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾(١)

فأصبحت طبقة رجال الدين ــ منذ العصر الصفوى ــ من أقوى طبقات المجتمع الإيرانى ، وأكثرها ثراء ، مما هيأ لأفرادها التدخل فى الأمور السياسية وغير السياسية فى إيران منذ ذلك الوقت وقد وضحت قوة هذه الطبقة بعد نجاح ثورة الخمينى ، فهى التى تمسك بأزمة الأمور فى إيران فى الوقت الحاضر .

وقد أدى تميز طبقة رجال الدين إلى كثرة المتمسحين بالدين والمتاجرين به ، فانتشرت البدع والخرافات فى المجتمع الإيرانى ، وراجت الأباطيل ، مما يسر ظهور حركات دينية مضللة تبشر بقرب ظهور الإمام الغائب .

وكان آخر هذه الحركات الدينية المضللة حركة البابية التى ظهرت

---

(١) سورة الأنفال : آية ٤١ .

فى عصر محمد شاه القاجارى — منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان — وقد روج لهذه الحركة ـ ميرزا على محمد الشيرازى الذى عاش فى الفترة ما بين ١٢٢٥ هـ إلى ١٢٦٦ هـ (١٨٠٩ — ١٨٥٠ م) ، وقد اتخذ الشيرازى لقب « الباب » أى « الباب بين دنيا المادة ودنيا الروح » واشتغل منذ شبابه بالدراسات الدينية ، وكان من المؤمنين بالأفكار التى دعا إليها الشيخ أحمد الأحسائى زعيم حركة الشيخية ، ومن أهم ما يؤمن به أتباع هذه الحركة ضرورة وجود نائب للإمام الغائب يسمى « الشيعى الكامل »

وقد رحب بتعاليمه عدد كبير من الشيعة — فى إيران — فادعى أنه نقطة التجلى الإلهى فى هذا العالم ، وأن موعد ظهور الإمام الغائب قد حان ، ودعا إلى سلام دائم ، وإلى إزالة الفوارق بين الطبقات ، وإلى تفسير الدين تفسيرا روحيا لا حرفيا ، فكثر أتباعه ، وازداد نفوذه ، فأعلن أن الإمام الغائب سيظهر قريبا فى غربى إيران ، فكان فى هذا الإعلان نهايته ، فقد كفره علماء الشيعة لاعتقادهم أن الإمام الغائب سيظهر فى المشرق فأفل نجم الباب ، وتم القبض عليه ، وقدم للمحاكمة ثم حوكم وأعدم رميا بالرصاص فى عصر ناصر الدين شاه ابن محمد شاه ، وكان ذلك فى عام ١٢٦٦ هـ (١٥٨٠م) .

وتفرق أتباع الباب — بعد إعدامه — وتنافس أخوان من أتباعه على زعامة طائفة البابية هما ميرزا حسين وميرزا يحيى ، وانقسمت الطائفة إلى جماعتين ، واتخذ ميرزا حسين لقب « بهاء الله » وعرفت

جماعته باسم « البهائية » ومَزَج بهاء الله دعوته ببعض الأفكار المضللة التى كانت سائدة فى أوربا حول تحرير المرأة والتحلل من التكاليف الشرعية ، وصاغ دينا لا يعترف بطقوس خاصة ، ولا بنظام معين فى العبادة ، وهرب من إيران واتخذ مدينة عكا ـــ بفلسطين المحتلة ـــ مركزا له ، ووجدت تعاليمه المضللة من يخدع بها فى مختلف أنحاء العالم .

والصبغة الشيعية واضحة فى مظاهر الحياة الدينية فى إيران ففى الأذان يضيف الشيعة عبارة « أشهد أن عليا أمير المؤمنين ولى الله » مرتين بعد عبارة « أشهد أن محمدا رسول الله » كما يضيفون عبارة « حى على خير العمل » مرتين بعد عبارة « حى على الفلاح » .

وفى الصلاة يسجد الشيعة على التراب ، وهم يحملون معهم قطعا من الطين الجاف .ويضعونها أمامهم فى وقت الصلاة ، ليسجدوا عليها ، ومكتوب على هذه القطع عبارة « تربت أعلى حال كربلا » أى « أفضل التراب تراب كربلاء » .

والشيعة لا يصلون خلف إمام سنى ، كما أن رجال الدين عندهم يلبسون عمامة سوداء إظهارا للحزن على استشهاد الحسين بن على ـــ رضى الله عنهما ـــ وإذا ذكروا إماما من أئمتهم من آل على ذكروا بعد اسمه عبارة « عليه السلام » وأحيانا « عليه الصلاة والسلام » وهذه عبارة لا يذكرها أهل السنة إلا بعد الأنبياء أما غير الأنبياء فتذكر بعد اسم كل منهم عبارة « رضى الله عنه » .

وهكذا يستطيع الدارس أن يتبين أن غلبة الصبغة الشيعية على

إيران منذ قيام الدولة الصفوية قد وضحت فى حياة الإيرانيين الدينية وضوحا ملموسا وجعلت الشيعة ينفرون من أهل السنة ، ولا يملون قتالهم ، ومازال هذا واضحا فى سلوك الشيعة فى إيران إلى يومنا هذا .

ثانيا : الناحية الاجتماعية :

كان لغلبة الصبغة الشيعية على مظاهر النشاط البشرى فى إيران منذ قيام الدولة الصفوية أثر واضح فى الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد ، فقد حدث تغير فى طبقات المجتمع ، فأصبحت طبقة رجال الدين طبقة متميزة متنفذة . تتدخل فى توجيه حياة الناس الدينية ، وفى الشئون السياسية المختلفة خاصة إذا كان الملك ضعيفا كما حدث فى عهد الشاه سلطانحسين الصفوى .

وقد أدى تميز طبقة رجال الدين وإعطاء خمس الأرباح التجارية والزراعية والصناعية للزعماء الدينيين - كما ذكرنا - إلى كثرة المتاجرين بالدين والمتمسحين فيه ، وساعد ذلك على ترويج البدع والخرافات والأباطيل فى المجتمع الشيعى .

كما أدى ضعف إيران السياسى فى العصر القاجارى إلى ازدياد النفوذ الأجنبى فى هذه البلاد ، وكان لهذا أثره فى المجتمع الإيرانى ، فقد شهد عصر فتحعلى شاه انتقال كثير من العادات والتقاليد الأوروبية إلى المجتمع الإيرانى ذى الصبغة الشيعية ، نتيجة لاتصال إيران بكثير من الدول الأوروبية كانجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وروسيا القيصرية ، فأخذت العادات والتقاليد الأوروبية فى اللباس والطعام والحفلات تظهر

فى إيران ، كما أخذ الإيرانيون يقتبسون بعض الكلمات من الفرنسية والإنجليزية والروسية ، ويستعملونها فى أحاديثهم وكتاباتهم .

وكان فتحعلى شاه ملكا فاسدا منحرفا يقضى أوقاته فى اللهو والعبث واتخاذ الخليلات والمحظيات وتعاطى الشراب فساعد ذلك على انتشار الفساد والانحراف فى المجتمع الإيرانى خاصة بين أصحاب النفوذ والأثرياء .

وكانت صلات إيران بأوروبا تزداد كلما ازداد النفوذ الغربى فى هذه البلاد فيزداد الاقتباس من العادات والتقاليد الغربية ، ويظهر ذلك بوضوح فى المجتمع الإيرانى مع وجود الصبغة الشيعية خاصة بعد احتلال قوات الحلفاء للأراضى الإيرانية فى المدة ما بين ١٩٤١ م و ١٩٤٦ م .

وبلغت صلة إيران بالغرب أشدها فى عهد الشاه محمد رضا بهلوى من عام ١٩٤١ م إلى عام ١٩٧٩ م لأنه كان باعترافه[١] يدور فى فلك الغرب بعامة وفى فلك الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة ، مما جعل النفوذ الغربى يظهر فى المجتمع الإيرانى الشيعى ظهورا ملموسا .

وهكذا أثرت الصبغة الشيعية فى ألوان النشاط البشرى فى إيران منذ العصر الصفوى إلى العصر الحاضر مما جعل سياسة إيران فى الداخل والخارج تختلف عن سياسة الدول الإسلامية الأخرى ذات

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتابى المؤلف « إيران ماضيها وحاضرها » و « وماذا بعد احتلال البصرة » للحصول على معلومات مفصلة عن هذه المسألة .

الصبغة السنية .

ثالثا : الناحية الاقتصادية :

كان لغلبة الصبغة الشيعية على النشاط البشرى فى إيران بعد قيام الدولة الصفوية ــ أثر واضح فى الناحية الأقتصادية فى هذه البلاد ، فقد عادى حكام هذه الدولة . وخاصة منذ عصر الشاه عباس الكبير ــ المعسكر السنى بقيادة العثمانيين ــ كما ذكرنا ــ فأخذوا يوثقون صلات إيران الاقتصادية بالدول الأوروبية ، ويسمحون للتجار الأجانب بحرية الحركة فى المدن الإيرانية .

وشجع ضعف إيران ــ فى العصر القاجارى ــ على ازدياد النفوذ الغربى فى هذه البلاد ، فحاولت الدول الكبرى ــ وبخاصة روسيا القيصرية وانجلترا ــ الحصول على امتيازات تجارية فى إيران .

وأخذ التنافس بين روسيا وانجلترا ــ فى الميدان الإيرانى ــ صورة التدخل الاقتصادى ، لأن النهضة الصناعية فى الغرب ، كانت تتطلب الحصول على المواد الخام ، وعلى الأسواق الجديدة لتصريف المنتجات ، فتنافست روسيا وانجلترا فى الحصول على امتيازات فى إيران ، وتعرضت إيران لغزو اقتصادى .

ففى عام ١٨٧٢ م تمكن البارون رويتر الإنجليزى من الحصول على موافقة ناصر الدين شاه القاجارى على منحه حق إنشاء السكك الحديدية وطرق المواصلات بالسيارات واستغلال الثروة المعدنية والبترول لمدة سبعين عاما ، كما وافق الملك على منح رويتر حق الإشراف على

الشئون الجمركية لمدة أربع وعشرين سنة ، ولكن روسيا اعترضت على هذه الامتيازات فاضطر ناصر الدين الشاه إلى سحبها من رويتر ، ثم حاول إرضاءه فمنحه حق إنشاء مصرف رسمى باسم « المصرف الإمبراطورى » .

وفى عام ١٨٩٠ حصلت شركة إنجليزية على حق احتكار الطباق الإيرانى ، ولكن رجال الدين اعترضوا ، وأصدروا فتوى تحرم استعمال الطباق ، فاضطر الشاه إلى إلغاء هذا الحق .

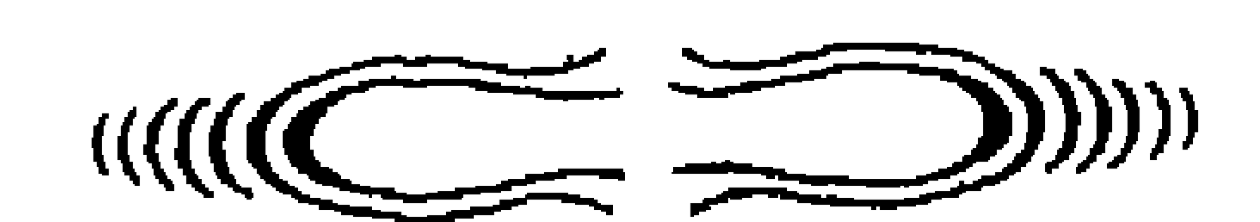
ولم تقف روسيا مكتوفة اليدين بل حاولت الحصول على امتيازات فى إيران ، واستطاعت — فى عام ١٨٧٩ م — أن تقنع ناصر الدين شاه بإنشاء لواء من القوزاق من الإيرانيين على نمط فرق القوزاق الروسية على أن يقوم ضباط من الروس بتدريب اللواء الإيرانى. كما استطاع أحد كبار تجار الروس الحصول على حق الصيد فى بحر قزوين ، ووافقت إيران — كذلك — على فتح مصرف روسى فى طهران فى عام ١٨٩١ م .

وازداد صلة ناصر الدين شاه بأوربا ، فتبادل التمثيل السياسى مع عدد من دولها ، وزار أوروبا مرتين ، فاقتنع بفائدة الاقتباس من النظم الأوربية ، وشجع الأجانب على الوفود إلى إيران ، وأعطاهم امتيازات كثيرة ، مما زاد من النفوذ الاقتصادى الأجنبى فى هذه البلاد .

وظل النفوذ الغربى قويا فى إيران ، موجها لنشاط إيران الاقتصادى طوال العصر القاجارى ، ثم ازداد قوة فى العصر البهلوى ،

وبلغ قمته فى عصر الشاه محمد رضا بهلوى الذى كان شرطى الغرب فى منطقة الخليج ، وإن كان النفوذ الأمريكى أظهر أنواع النفوذ الغربى فى إيران فى مختلف ألوان النشاط البشرى فى إيران بما فيها النشاط الاقتصادى .

وقد أدى سقوط الشاه والنظام الملكى فى إيران بواسطة الثورة الإسلامية بقيادة الزعيم الدينى الشيعى آية الله الخمينى إلى القضاء على النفوذ الأمريكى فى إيران بخاصة والتقليل من النفوذ الأجنبى بعامة ، ولكن الصبغة الشيعية هى المسيطرة ــ الآن ــ بقوة ووضوح على النشاط الاقتصادى وجميع ألوان النشاط البشرى فى إيران بصورة لم تشهدها إيران منذ العصر الصفوى الذى بدأت فيه غلبة الصبغة الشيعية فى هذه البلاد .



الفصل الرابع
أثر الصبغة الشيعية فى النواحى العلمية والأدبية والفنية

كان لغلبة الصبغة الشيعية على إيران منذ قيام الدولة الصفوية أثر واضح فى النواحى العلمية والأدبية والفنية كما أثرت فى غيرها من ألوان النشاط البشرى فى هذه البلاد مما سنبينه فيما يلى :

أولا : الناحية العلمية :

كان النشاط العلمى فى إيران فى القرون التى غلبت فيها الصبغة السنية على هذه البلاد ــ أى فى أثناء القرون الهجرية التسعة الأولى جزءا من النشاط العلمى فى سائر أرجاء العالم السنى ، فكانت الكتب التى تؤلف فى مختلف أنواع العلوم ــ من شرعية وغير شرعية ــ تعد إنتاجا علميا لعلماء أهل السنة على اختلاف أقطارهم .

وقد ساهمت إيران ــ فى المدة التى غلبت عليها الصبغة السنية ــ فى بناء صرح الحضارة الإسلامية الراقية ، وكان فيها علماء أفذاذ فى مختلف العلوم الشرعية كالحديث والتفسير والفقه ، وغير الشرعية كالتاريخ والجغرافية والرياضيات ، بل وفى العلوم العربية كالنحو والصرف

والعروض ، سبق أن ذكرنا بعضهم على سبيل المثال لا الحصر .

فلما غلبت الصبغة الشيعية على ألوان النشاط البشرى فى إيران بعد قيام الدولة الصفوية أصبح النشاط العلمى فى هذه البلاد منفصلا عن النشاط العلمى فى العالم السنى لأنه اصطبغ بالصبغة الشيعة ، وصارت موضوعات الكتب العلمية ذات طابع شيعى واضح فى العلوم الشرعية وغير الشرعية على السواء ، ففى العلوم الشرعية من حديث وتفسير وفقه ، غلبت الصبغة الشيعية ، وبدأ التعصب المذهبى واضحا فى هذه الكتب ، فقد حرص علماء المذهب الشيعى على إثبات وجهة نظر الشيعة الإمامية فى المسائل الدينية المختلفة كالخلافة والإمامة والصلاة والصوم والزكاة والحج وفى الزواج وتعدد الزوجات والوفاة وطريقة دفن الميت وسائر الأمور الدينية ، واستعان علماء الشيعة فى كتبهم الشرعية المختلفة بتفسير الأحاديث النبوية والآيات القرآنية تفسيرا موجها يتفق مع رأى الشيعة فى أمور الدين المختلفة ، وكثيرا ما كانوا يستشهدون بأحاديث ضعيفة أو موضوعة لم تثبت نسبتها إلى رسول الله ــ ﷺ ــ

وظهرت الصبغة الشيعية ــ كذلك ــ فى الكتب غير الشرعية ككتب التاريخ ، فقد فسر المؤرخون من الشيعة منذ العصر الصفوى أحداث التاريخ الإسلامى المختلفة تفسيرا يخدم كفاح الشيعة من أجل الظفر بخلافة المسلمين ، فعدوا تحرك الحسين بن على ــ رضى الله عنهما ــ من الحجاز إلى العراق ثورة إسلامية كبرى لإنقاذ الإسلام من

خطر الأمويين .

كما شوه مؤرخو الشيعة تاريخ الأمويين تشويها عجيبا ، لأنهم قتلوا الحسين بن على فى كربلاء ــ يوم عاشوراء من عام ٦١ هـ ــ فسلبوهم صفة الإسلام ، وصبوا عليهم اللعنات ، وفعلوا نفس الشيء مع العثمانيين ، ومع كل من ناصبوا الشيعة العداء عبر العصور الإسلامية المختلفة .

وكان من آثار غلبة الصبغة الشيعية على إيران ــ بعد قيام الدولة الصفوية ــ التشجيع على قتال أهل السنة ، الأمر الذى يحتاج إلى مجاهدين ومحاربين أشداء ، ويتنافى مع الزهد والخلوة والاعتكاف والانقطاع عن الحياة مما يدعو إليه الصوفية ، ولهذا حارب الصفويون التصوف بمعنى الزهد والاعتكاف والانقطاع للخلوة والعبادة ، وعدوا هذا اللون من التصوف بعيدا عن نهج الإسلام الصحيح الذى يدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل نصرة الإسلام والدفاع عن الأوطان ، لأن التصوف فى هذه الصورة يتنافى مع أهداف الدولة الشيعية التى يحيط بها أعداؤها ــ من أهل السنة ــ من الشرق والغرب ، ولهذا أخذ مفهوم التصوف يتطور ــ بعد غلبة الصبغة الشيعية على إيران ــ ليتفق مع أهداف الشيعة ، فتحول التصوف إلى نوع من الفتوة ، والتمرّن على استعمال الأسلحة ــ التى يحارب الإنسان بها أعداءه ــ لأن أسمى هدف ينبغى أن يصل إليه الشيعة هو القضاء على أعدائهم السنيين المخالفين لتعاليم الإسلام ــ فى رأيهم ، ولا سبيل لبلوغ هذا الهدف

المنشود إلا مواصلة الجهاد والقتال حتى يتحقق النصر المبين على هؤلاء السنيين .

وهكذا تحول التصوف إلى نوع من الفتوة وكثر التأليف فى موضوع الفتوة ــ فى العصر الصفوى ــ وربط علماء الشيعة الفتوة بالعقيدة الشيعية ، فقالوا إن أول من لقب بفتى هو على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ وأن لقب فتى نزل على لسان جبريل ــ عليه السلام ــ يوم بدر أو يوم أحد ، وأصبح ــ منذ ذلك الوقت ــ يطلق على « على بن أبى طالب » لما أبلاه فى الجهاد فى سبيل الله من ضروب الشجاعة والقوة والبسالة .

كما ظهر أثر الصّبغة الشيعية فى كثير من مسائل العقيدة ، فمثلا يعتقد الشيعة أن إسراء الرسول ومعراجه كان بالروح فقط لا بالجسد والروح كما يعتقد أهل السنة .

وهكذا أثرت الصبغة الشيعية فى الناحية العلمية فى إيران منذ قيام الدولة الصفوية ومازال أثرها واضحا ملموسا إلى يومنا هذا .

ثانيا : الناحية الأدبية :

وظهر أثر الصبغة الشيعية ــ كذلك ــ فى الناحية الأدبية بعد قيام الدولة الصفوية وظهرت هذه الصبغة فى الموضوعات الأدبية المكتوبة ــ شعرا ونثرا ــ باللغة الفارسية أو باللغة العربيــة ــ فراج فى هذه الموضوعات الأدبية ــ مدح أئمة الشيعة الاثنى عشر ابتداء من على بن أبى طالب إلى محمد بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر صاحب

الزمان والمهدى المنتظر عندهم وإلى جانب مدح هؤلاء الأئمة وذكر مناقبهم وتعداد مفاخرهم وأمجادهم راج ــ فى الموضوعات الأدبية . كذلك رثاء الأئمة الذين استشهدوا فى سبيل نصرة الإسلام ، وبخاصة الإمام الحسين بن على ــ رضى الله عنه ــ الذى استشهد فى كربلاء فى يوم عاشوراء ــ فى عام ٦١ هـ ــ وقتل بطريقة بشعة تتفطر لها أقسى القلوب ، وصار البكاء على الحسين ــ منذ العصر الصفوى ــ مذهبا متبعا عند الشيعة من الحكام والعظماء والعلماء والعامة ، وأصبح البكاء يتم فى مواكب دينية حاشدة تطوف الشوارع والطرقات فى الأيام الأولى ــ من شهر المحرم ــ إلى يوم عاشوراء .

كما أصبحت موقعة كربلاء تمثل تمثيلا مسرحيا مما جعل الموضوعات الأدبية ــ بعد قيام الدولة الصفوية ــ تتضمن مسرحيات مذهبية شيعية تصور مصرع الحسين الذى يعد « سيد الشهداء » فى معتقدات الشيعة كما ذكرنا .

وكان مدح أئمة الشيعة والبكاء على شهدائهم بأمر من ملوك الصفويين ، وبتشجيع من علماء الشيعة الذين كانوا يقودون مواكب التعزية والبكاء فى عاشوراء ومازال هذا الأثر الشيعى واضحا فى الأدب الفارسى فى إيران حتى العصر الحاضر .

ولقد كان الأدب فى إيران فى المدة التى غلبت فيها الصبغة السنية على هذه البلاد ــ غير منفصل ــ فى موضوعاته عن الأدب فى دول العالم الإسلامى السنى الأخرى ، فجعلته الصبغة الشيعية فى صورة

تختلف ملامحها عن ملامح الأدب الإسلامى فى الدول السنية .

ولم يقتصر أثر الصبغة الشيعية على الموضوعات الأدبية ـــ ذات الطابع المذهبى ـــ بل ظهرت كذلك فى سائر موضوعات الأدب فى إيران منذ العصر الصفوى إلى يومنا هذا ، فظهرت فى الموضوعات الأدبية التى تعالج النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من ألوان النشاط المختلفة فى هذه البلاد .

وهكذا يستطيع الدارس للأدب فى إيران منذ العصر الصفوى أن يشاهد فى سهولة ويسر أثر الصبغة الشيعية فى الناحية الأدبية ، ووضوح هذا الأثر فى موضوعات الأدب وفى أسلوبه وألفاظه ، بحيث أصبحت ملامح الأدب فى إيران فى عصور غلبة الصبغة الشيعية على هذه البلاد ، تختلف عن ملامحها فى مدة غلبة الصبغة السنية عليها .

ثالثا : الناحية الفنية :

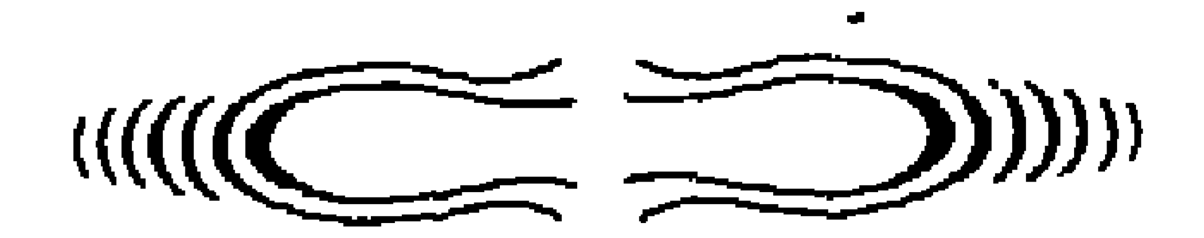
ظهرت الصبغة الشيعية فى الفنون الإيرانية منذ قيام الدولة الصفوية ، فأصبح اللون الأسود من الألوان التى تستعمل كثيرا بواسطة الفنانين الإيرانيين ، لأنه رمز الحزن والحداد على مصرع أئمة الشيعة ـــ الذين استشهد أكثرهم ـــ وفى مقدمتهم الحسين بن على ـــ رضى الله عنه .

وتفنن الرسامون الإيرانيون فى رسم صور لأئمة الشيعة فظهرت صور لعلى بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ الإمام الأول عندهم

لحسين بن على ولسائر أئمة الشيعة ــ رضوان الله عليهم أجمعين .

كما غلبت نغمة الحزن على الموسيقى والغناء منذ غلبة الصبغة الشيعية على مظاهر النشاط البشرى فى إيران فى القرن العاشر الهجرى ــ السادس عشر الميلادى ــ إلى العصر الحاضر ، وكان هذا الحزن نابعا من تأثر الشيعة بمقتل الحسين ــ بطريقة بشعة ــ فى يوم عاشوراء ــ كما ذكرنا ــ وقتل أكثر أئمتهم ، مما جعل الشيعة يكثرون من البكاء فى المناسبات المذهبية المختلفة ــ وبخاصة يوم عاشوراء ــ حتى أصبح البكاء عقيدة ومذهبا وعبادة تكفر الذنوب مما جعل نغمة الحزن فى الموسيقى والغناء شيئا لازما لإثارة الرغبة فى البكاء عند الشيعة المتدينين .

والدارس للفنون الإيرانية منذ قيام الدولة الصفوية الشيعية يستطيع أن يشاهد فى سهولة ويسر أثر الصبغة الشيعية فى سائر الفنون الإيرانية من رسم ونقش ونحت وتصوير وموسيقى وغناء وتمثيل وصناعات مختلفة مما يدل على أن هذه الصبغة الشيعية لم تقتصر على النشاط السياسى وإنما شملت جميع مظاهر النشاط البشرى فى إيران طوال القرون الخمسة الأخيرة من تاريخها فى ظل الإسلام .



خاتمــة

لعلى استطعت إعطاء صورة صحيحة عن النشاط البشرى فى إيران فى ظل الإسلام ، سواء حين غلبت الصبغة السنية عليها فى القرون الهجرية التسعة الأولى أو فى المدة التى غلبت عليها الصبغة الشيعية منذ القرن العاشر الهجرى إلى يومنا هذا .

وقد ظلت ملامح صورة إيران فى ظل الإسلام متفقة مع ملامح صور الدول الإسلامية السنية الأخرى طوال مدة غلبة الصبغة السنية عليها ، فاستطاعت أن تساهم فى بناء صرح الحضارة الإسلامية مع غيرها من دول العالم الإسلامى ، فلما غلبت عليها الصبغة الشيعية تغيرت ملامح صورتها ، وأصبح نشاطها البشرى يختلف عن نشاط الدول السنية فانقسم المسلمون إلى معسكرين ؛ معسكر شيعى وآخر سنى واشتبك المعسكران فى حروب كثيرة أضعفت قوة المسلمين — عامة — ومكنت لأعدائهم من الظفر بهم والسيطرة على كثير من بلادهم وساهمت فى إيجاد كثير من المشاكل التى تعرف الآن باسم « مشاكل الشرق الأوسط » ، ومازال من آثارها القتال الناشب — فى منطقة الخليج — بين إيران ممثلة للمعسكر الشيعى، والعراق ممثلا للمعسكر السنى .

ولعلنا لاحظنا من هذا العرض السريع للنشاط البشرى فى إيران ــ فى ظل الإسلام ــ فى صورتيه السنية والشيعية أن إيران كان لنشاطها البشرى سمات خاصة مميزة اكتسبتها من البيئة الجغرافية ، ومن الظروف المختلفة التى أحاطت بالشعب الإيرانى ــ فى خلال القرون المتعاقبة ــ فكون إيران هضبة مرتفعة تعلوها الجبال من كل جانب ــ بحيث لا يوجد فيها بلد إلا وفيه جبل ــ جعل الماء غير متوفر فيها توفره فى مصر أو العراق أو الهند ــ مثلا ــ مما جعل الحياة فيها قاسية .

كما أن موقع إيران الجغرافى ، وكونها معبرا بريا بين الشرق والغرب جعلها ملتقى للتيارات الحضارية المختلفة ، مما جعل أهلها يستفيدون من هذا بالاقتباس من التيارات الفكرية والفنية ، ولكنهم يتضررون حين يصيرون مطمعا للغزاة الذين حاولوا الاستفادة من موقع إيران الجغرافى والاستراتيجي فى تقوية نفوذهم فى منطقة الشرق الأوسط الغنية بمواردها الطبيعية . وقد تحملت إيران أثقال موقعها الجغرافى فى أوقات ضعفها وفساد حكامها .

وقد ظلت إيران على الدوام مستعدة لاستقبال الأفكار الأجنبية والمؤثرات الخارجية والأساليب الفنية الوافدة والاقتباس منها ، ولكن النشاط البشرى فى العصر الحديث لم يفقد صلته بالقديم ، فظل محتفظا بصفات متشابهة على مر العصور ، لأن الفخر بالماضى والحرص على تسجيل مظاهر النشاط البشرى فيه ، أبقى هذه المظاهر وجعلها تكتسب شيئا من القداسة .

وقد ساد النظام الإقطاعي في إيران في أدوار تاريخها المختلفة إلى العصر الحديث ، ثم قضت عليه الثورة الإسلامية التي يقودها علماء المذهب الشيعي الإمامي بزعامة آية الله الخميني ، كما ظل نظام إيران الاجتماعي يدور حول النظام الإقطاعي ممثلاً في الملكية المستبدة التي يشد أزرها الإقطاعيون الذين يهيمنون على الجزء الأكبر من الأراضي ويفرضون سلطانهم على سائر أرجاء البلاد ، فلما سقط نظام الشاه الإقطاعي انتقل زمام الأمور إلى أيدي كبار علماء المذهب الشيعي ، ففرضوا سلطانهم بنفس الصورة تقريبا — وظلت حالة عامة الشعب الإيراني متشابهة — إلى حد كبير — في مختلف العصور .

وكان لانتشار الصبغة الشيعية — بعد قيام الدولة الصفوية أثر ملحوظ في توجيه النشاط البشري الإيراني — كما وضحنا — لأن ملوك الصفويين الشيعة استغلوا العصبية المذهبية التي غرسوها في نفوس الجزء الأكبر من أبناء الشعب الإيراني في توجيه إيران وجهة مخالفة لوجهة الدول الإسلامية السنية .. وجهة تتفق واعتزاز الإيرانيين بماضيهم وحضارتهم قبل الإسلام وعصبيتهم الشيعية ، مما ساعد على إحياء كثير من مظاهر حضارة إيران القديمة بعد صبغها بالصبغة الشيعية حتى يضمنوا لها البقاء ، فيحرص الإيرانيون على بقائها والاعتزاز بها والمحافظة عليها ، لأنها جزء من تراثهم الديني ، وليست مجرد أثر من آثار الماضي .

فالعادات المتبعة في حالة وفاة أي فرد من أفراد الأسرة في إيران في

الوقت الحاضر مشابهة تماما للعادات التى كانت متبعة فى إيران قبل الإسلام ، وهى أن تقوم الأسرة بعد دَفْن جثة الميت بالإبقاء على أدوات الميت الخاصة التى كان يستعملها كثيرا — فى أثناء حياته — فى الحجرة التى كان ينام فيها ، لاعتقاد الأسرة بأن روح الميت تظل أسبوعا هائمة فى هذه الحجرة ، ثم تيأس من العثور على صاحبها ، فتخرج من الحجرة وتهيم بين السماء والأرض مدة ثلاثة وثلاثين يوما تصعد بعدها إلى السماء ، ولذلك يقام احتفال بعد مرور أربعين يوما على وفاة الميت لتوديع الروح وهى تأخذ طريقها إلى السماء بعد أن يئست من البقاء فى الأرض ، وهذه معتقدات تخالف معتقدات أهل السنة التى تقرر أن القبر مستقر الأرواح .

وصفوة القول : أن تغير الصبغة الدينية من السنية إلى الشيعية — فى إيران — منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) كان له تأثير بعيد المدى فى جميع مظاهر النشاط البشرى فى هذه البلاد ، وفى توجيه السياسة التى انتهجها — ومازال ينتهجها — حكام إيران تجاه الدول الإسلامية وغير الإسلامية التى جاورت إيران أو ارتبطت بها برباط المصلحة ، فكان للعصبية المذهبية أثرها — كما وضحنا — فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية ، كما كان لهذه العصبية أثر فى إيجاد المشاكل التى مازالت قائمة فى الشرق الأوسط ، أو فى تطوير هذه المشاكل .

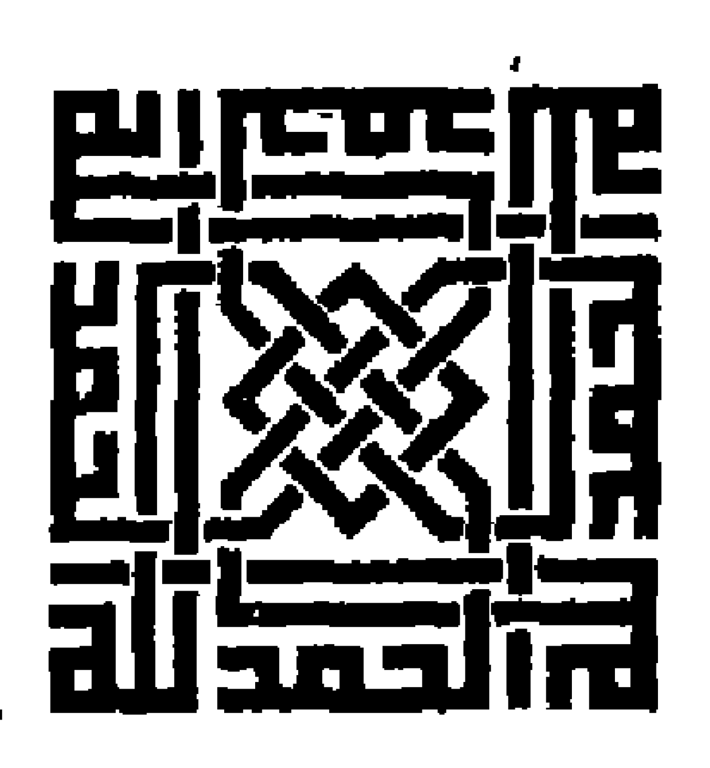
وما أحوج المسلمين — فى الوقت الحاضر — إلى القضاء على

التعصب المذهبى أو تخفيف حدته ـ على الأقل ـ والنظر إلى الخلافات المذهبية على أنها خلافات فى الرأى حول تفسير نص من النصوص ، وأن هذه الخلافات لا ينبغى أن تصل إلى درجة العداوة أو استعانة طرف بالدول الأجنبية الاستعمارية لدحر الطرف الآخر كما فعل الصفويون فتحالفوا مع الدول الغربية الصليبية من أجل القضاء على العثمانيين السنيين أعدائهم فى المذهب .

ولعل وعى الشعوب الإسلامية يمكنها من توحيد صفوف المسلمين للوقوف فى وجه أعدائهم الحقيقيين من المستعمرين والصليبيين واليهود والملحدين ، والنهوض بالعالم الإسلامى حتى تعود للمسلمين عزتهم ونهضتهم ومجدهم .

والله الموفق والهادى إلى سبيل الرشاد

وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين



الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٧٨ / ٨٨

الترقيم الدولى ٥ ــ ٥٦ ــ ١٤٢١ ــ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش . م . م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٢٤٢٧٣٣١ / ٢٥٦٢٢٠ / ٢٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٢٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء
٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦